شرح الإمام الشيخ
علاء الدين البُصْرَوى الدمشقى[١]

السريرة المنزعجة لشرح القصيدة المنفرجة

الشارح:

١. هو الفقيه النحوى الشيخ علاء الدين بن يوسف بن على بن أحمد الدمشقى العاتكى الشهير بالبصروى. ولد سنة٨٤٣هـ، وقيل ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م. اشتغل فى العلم على الشيخ رضى الدين الغزى، ولازمه، وأخذ عن غيره، وبرع فى الفقه وغيره، وهو والد الخطيب جلال الدين البصروى، له "شرح جمع الجوامع للتاج السبكى" منه نسخة فى شستربتى ٣١٥٧، و"النفحة الزكية فى شرح المقدمة الأجرومية" فى الظاهرية (الرقم العام ٦٦١٨)، توفى بدمشق سنة ٩٠٥ هـ/ ١٥٠٠م. ولم أعثر على ترجمة وافية له فيما بين يدى من مصادر. انظر : شذرات الذهب: ٨ / ٣٧.

بسم الله الرحمن الرحيم... الحمد لله فارج الهم واسع الكرم والصلاة والسلام على نبيّه المبعوث إلى العرب والعجم وعلى آله وأصحابه والتابعين ذوى الهمم.

وبعد

فإن القصيدة المسماة بالمنفرجة نظم الإمام العالم العامل العارف بالله تعالى أبى الفضل يوسف بن محمّد بن يوسف المعروف بابن النحوى، أعاد الله علينا من بركاته والمسلمين لما احتوت على حِكَم وفوائد ومواعظ وفرائد، واشتهر عن العلماء وأرباب القلوب أنهم إذا ضاق بهم أمر وقرأوها فتفرج عنهم الكروب.

وكان شرحها الأستاذ الجامع لأشتات العلوم أبى العباس أحمد بن أبى زيد النقاوسى[1] رحمه الله تعالى، وقد احتوى من العلوم والحكم والآداب الشرعية على ما يبهر الناظر ويشرح الخاطر، وكانت هذه السنة وهى سنة ثلاث وسبعين وثمان مائة، قد حصل للمسلمين كافة شدة مهولة بسبب ارتفاع الأسعار وغيره ولبعض أكابر بلدتنا دمشق خاصة بسبب تغير الخواطر الشريفة. سرى فى خلدى بتحريك مُصرِّف القلوب أن أنتزع من الشرح المذكور وغيره ما يوضّح معنى أبيات القصيدة تفاؤلاً باسمها وممارستها لعل الله تعالى أن يقرب الفرج. فإنّ نبيّنا ﷺ كان يحب الفال.

على أنّه قد تصدّى بعض شيوخنا لاختصار الشرح آتيًا بغالب مقاصده وأنا أعتصم بالله وأتوكّل عليه وأشرع فيما قصدته وأجعله هدية للمخدوم المشار إليه مع سؤال الله تعالى أن يفرج كربته، ويكشف غمّته، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.

١- هو أحمد بن عبد الرحمن النقاوسى البجائى، أبو زيد (ت ٨١٠ هـ) له أشهر شرح للمنفرجة وقد أسماه «الأنوار المنبلجة فى بسط أسرار المنفرجة». وقال تلميذه أبو زيد عبد الرحمن الثعالبى: هو شيخنا الإمام المحقق الجامع بين علمى المنقول والمعقول، ذو الأخلاق المرضية والأحوال الصالحة السنية. انظر: نيل الابتهاج: ١١١.

اعلم أنّ الشيخ الناظم أصله من تَوْزَر[١] واستوطن القلعة الحمادية وكانت إذ ذاك محط رجال الأفاضل من بنى حماد .

كان أبو الفضل بن النحوى فى بلادنا بمنزلة الغزالى[٢] فى بلاد العراق فى العلم والعمل.

وقال الفهرى[٣]: كان إمامًا عالمًا، مجاب الدعوة، متكلمًا فصيحًا.

وحكى أنه عزم إلى الحجاز الشريف فشكى أهله ضياع حالهم فى غيبته فكتب لهم رقعة وقال: احتفظوا عليها، فكان شخص فى غيبته يأتيهم كل يوم بما يحتاجون إليه حتّى رجع الشيخ ففتشوا الرقعة بعد هذا فإذا فيها شعر:

إن الذى وجهت وجهى له هو الذى خلفت فى أهلى
فإنه أرفق منى بهم وفضله أوسع من فضلى

ولما قدم سجلماسة[٤] نزل بمسجد ابن عبد الملك ليدرس الأصلين فمرّ به

---

١. توزر: بالفتح ثم السكون، وفتح الزاى، مدينة فى أقصى إفريقية من ناحية الزاب الكبير، أرضها سبخة بها نخل كثير، كانت مدينة حصينة لها أبواب أربعة، هى أكثر بلاد إفريقية تمرًا، يخرج منها ثلاثة أنهار، ينسب إليها جماعة من العلماء منهم: أبو حفص، عمر بن أحمد بن عيسون الأنصارى التوزرى. انظر: معجم البلدان ٢/ ٥٨.

٢. الغزالى: (٤٥٠/ ٥٠٥هـ) حجة الإسلام، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، ولد بطوس، أقام على التدريس والتعليم والفتيا والتأليف والتصنيف، له من التصانيف: "إحياء علوم الدين"، تهافت الفلاسفة"، "الاعتقاد فى الاقتصاد"، "معارج القدس فى أحوال النفس"... وغيرها. انظر: الأعلام: ٧/ ٢٤٧. معجم الأعلام: ٧٧٦. الإعلام بوفيات الأعلام: ٢٠٨.

٣. لعله: أبو عبد الله، محمد بن إبراهيم الفهرى (ت ٦١٢هـ) الشيخ الفقيه، الأصولى المتكلم، العالم المجتهد، من أهل بجاية، رحل إلى المشرق وولى قضاء المدن بجزيرة الأندلس، واستخلف بمراكش، وولى قضاء بجاية ثلاث مرات: انظر: عنوان الدراية: ٢٠٨، نيل الابتهاج: ٢٧٨.

٤. سِجِلْماسة: بكسر أوله وثانيه وسكون اللام، مدينة فى جنوبى المغرب فى طرف بلاد السودان، بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب وهى فى منقطع جبل دَرَن. انظر: معجم البلدان: ٣/ ١٩٢. المسالك والممالك: ٣٤.

عبد الله بن بسّام[١] وكان من رؤساء البلد فقال: ما العلم الذى يقربّه هذا الإنسان؟

قيل له: أصول الدين وأصول الفقه، وكانوا قد اقتصروا على علم الرأى. فقال: هذا يريد أن يدخل علينا علومًا لا نعرفها. وأمر بإخراجه من المسجد، فقام أبو الفضل من مكانه ثم قال: أمتَّ العلم أماتك الله هنا.

وكانت عادة أهل البلد أن يعقدوا أنكحتهم فى المسجد بسحر فحضر ابن بسام فى اليوم الثانى سحرًا فى المكان المذكور بسبب عقد فمرّ به جماعة من صنهاجة فقتلوه بالرماح.

وحُكِىَ أنه كان يلبس البياض فدخل عليه شاب من طلبة العلم ليُسلِّم عليه فأراق الحبر على ثوب الشيخ أبى الفضل فخجل، فقال: كنت مفكرًا فى أى لون أصبغ هذا الثوب فالآن أصبغه (حبرى) فجرّده وبعثه إلى الصباغ.

وكان إذا احتاج وتأخر عنه ما يأتيه من بلده دعا بالدعاء المأثور عن الخضر عليه السلام فيما حكاه الغزالى فى كتاب الأمر بالمعروف من كتاب "إحياء علوم الدين" فيفرج عنه. وهو: اللّهمّ كما لطفت فى عظمتك دون اللطفاء، وعلوت بعظمتك على العظماء، وعلمت ما تحت أرضك كما علمت ما فوق عرشك، وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك، وعلانية القول كالسر فى علمك، وانقاد كل شىء لعظمتك وخضع كل ذى سلطان لسلطانك، وصار أمر الدنيا والآخرة بيدك، اجعل لى من كلّ همّ أمسيت فيه فرجًا ومخرجًا. اللّهمّ إن عفوك عن ذنوبى، وتجاوزك عن خطيئتى، وسترك على قبيح عملى أطمعنى أن أسألك ما لا أستوجبه وما قصرت فيه، أدعوك آمنًا وأسألك مستأنسًا وإنك المحسن إلىَّ، وإنى المسئُ إلى نفسى فيما بينى وبينك، تتودّد إلىَّ بالنّعم، واتبغّض إليك بالمعاصى، ولكن الثقة بفضلك حملتنى على الجرأة عليك، فجد بفضلك وإحسانك على، إنك أنت التوّاب الرحيم.

---

١. عبد الله بن بسام (ت بالقرن الخامس الهجرى) ولم أقف على ترجمته، لكنه يبدو أنه كان أميرًا على مدينة سجلماسة فى حياة أبى الفضل ابن النحوى.

توفى الناظم بقلعة آل حماد سنة ٥١٣هـ، وفيها توفى الغزالى يرحمهما الله تعالى.

وسبب نظمه لهذه القصيدة أنّ بعض المتغلبين عدا على أمواله وأخذها وآذاه فبلغه ذلك، وكان بغير مدينته، فأنشأ هذه القصيدة فرأى ذلك الرجل تلك الليلة رجلاً فى يده حربة وقال: إن لم ترد على فلان أمواله وإلا قتلتك بهذه الحربة، فاستيقظ مذعورًا وأعاد عليه أمواله، وقيل غير ذلك.

ونقل عن جماعة من المعتبرين إنها مشملة على الاسم الأعظم، وأنه ما دعا بها أحد إلا استجيب له.

وكان الإمام المجتهد تقى الدين السبكى[١] رحمه الله تعالى إذا أصابته أزمة ينشدها. كما نقل ذلك ولده تاج الدين[٢].

وقال بعضهم: من قرأها على طهارة وقلبه حاضر من غير أن يكلِّم أحدًا أربعين مرة، وسأل الله تعالى حاجته قُضيت.

وقد رويتها عن الشيخ العارف بالله تعالى الجامع للعلوم شهاب الدين أحمد ابن يونس الصنهاجى ثم الحميرى عن الشيخ كرامة الزلدوى عن الأستاذ أبى العباس أحمد النقاوسى عن أبى موسى الغبرنى[٣] عن أبى القاسم الغبرينى[٤]

---

١. تقى الدين السبكى: (ت ٧٥٦هـ) تقى الدين، أبو الحسن على بن عبد الكافى بن على السبكى الأنصارى الخزرجى، شيخ الإسلام، ولى التدريس فى أماكن كثيرة فى مصر والشام وتصدى لابن تيمية ورد عليه فى مسألتى: الطلاق، وزيارة قبر النبى (ﷺ)، وتولى قاضى قضاة الشام عام ٧٣٩هـ وله من المصنفات ما يربو على نحو ١٥٠ مصنفًا. انظر: الأعلام: ٥/ ١١٦، مقدمة تحقيق طبقات الشافعية (الحلو/الطناحى).

٢. تاج الدين أبو نصر (ت ٧٧١هـ) عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى الأنصارى الخزرجى، احتل مكان الصدارة فى الفتيا والتدريس، ولد بمصر، وتولى مناصب عديدة فى مصر والشام. انظر: الأعلام ٤/ ٣٢٥. معجم الأعلام: ٤٧٥. مقدمة طبقات الشافعية.

٣. لم أقف على تراجمهم.

٤. أبو القاسم الغبرينى (ت بعد ٧٧٠ هـ) أحمد بن أحمد بن أحمد الغبرينى، أبو القاسم التونسى، فقيهها ومفتيها، أخذ عن ابن عبد السلام وطبقته، وتولى الفتيا بتونس. انظر: نيل الابتهاج: ١٠٤.

عن أبى عبد الله بن صالح الكنانى عن الشيخ الناظم رحمه الله. وهذا أوان الشروع فى حل أبياتها وبالله المستعان.

اشتدى أزمة تنفرجى قد آذن ليلك بالبلج

الإشتداد: التقوى من الشّدة وهى القوة. والأزمة: القحط وأصلها العض والضم بقوة، وهى هنا ما يصيب الإنسان من الحوادث المقلقة. والانفراج: ذهاب الهمّ. وآذن أى: أعلم، وخص الليل بالذكر فى إرادة الزمن المطلوبة لاشتداد الكرب، فكأنه قال: آذن غمّك وكربك. والبَلَج بفتح اللام: وضوح الصبح وهو هنا استعارة للفَرَج لاشتراكهما فى الاذهاب، فإن النور يُذهب الظلمة، والفرج يذهب الحزن ويُوجب الفرح والسرور.

والمصراع الأول نص رسول الله ﷺ، وطلبه من الأزمة الاشتداد ليس مقصوداً على الحقيقة وإنما المقصود طلب الفرج، بنزول الشدة لما ثبت واستقر عنده ﷺ بالوحى إن الشدة سبب الفرج، فنزّل السبب منزلة المسبّب لحصول التسلية وتأنيس النفس بأن الشدّة نوع من النعمة لما يترتب عليها من الخيرات عاجلاً بهجوم الفرج، وآجلاً بحصول الثواب الجزيل.

قال الله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (٣) أى: قرب العسر يسر بدليل البعد به فى غيره.

وقال ﷺ لابن عباس(٤) رضى الله عنهما فى الحديث المشهور "احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك. تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدّة،

---

١. سورة الطلاق: ٧.

٢. سورة الشورى: ٢٨.

٣. سورة الانشراح: ٥/ ٦.

٤. ابن عباس: (ت ٦٨هـ بالطائف) أبو العباس، عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، الإمام البحر، ترجمان القرآن، ابن عم رسول الله(ﷺ)، وُلد قبل الهجرة بثلاث سنين، دعا له الرسول(ﷺ) بالحكمة والتفقه. انظر: معجم الأعلام: ٤٤٤. الإعلام بوفيات الأعلام: ٤٤.

واعلم إنما أصابك لم يكن ليخطيك وما أخطاك لم يكن ليصيبك. واعلم إنّ النصر من الصبر، وإنّ الفرج مع الكرب، وانّ مع العسر يسرًا"[١].

وكان سحنون الإمام الجليل[٢] إذا ضاق عليه أمر يقول: ضيقى تنفرجى يا ملك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين.

واشْتُكِيَ إلى الشيخ أبى اسحاق النساى[٣] رحمه الله تعالى ببعض الأشرار ثم عاد إليه المشتكى وذكر أن أمره اشتدّ معه فقال: الآن قرب الرجاء فى الله، فكفى الله شره، ودفع ضره بموته. ومن فرّ إلى الله أواه الله، ومن التجأ إليه عافاه ووقاه.

وفى البيت إشارة أيضًا إلى أن سلوك طريق الآخرة فيه على النفس أعظم مشقة ويعقبها أتم فرج.

وظلام الـلـيـل له سُـرُجٌ حـتّى يـغـشـاه أبـو الـسُـرُج

الظلام خلاف النّور، والشمس: تسمّى سراجًا، والغشيان بكسر الغين: الإتيان.

والظاهر أن الشيخ أراد بهذه الألفاظ معانيها الحقيقية. فأبو السرج هى الشمس فإن أنوار القمر مستفادة منها وغلّبها الشيخ على النجوم. فكلامه فيه تشبيه ذكر أحد طرفيه، وهو المشبه به وطوى ذكر المشبه، فكأنه يقول: المصائب وأحزانها الشديدة لا بد فى أثنائها من ألطاف يخفيه معها الغم حتى يتفضل الله تعالى بالفرج التام الذى لا يبقى معه كرب كالليل المظلم جعل الله الكواكب فيه يقل بها ظلامه ويخف فيضه حتّى يأتى النهار فيذهب ظلامه كلّه وتشرح النفس بتمام النّور واستكمال الضوء.

قال ابن عطاء الله[٤]: من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذاك لقصور نظره.

---

١. ورد الحديث بلفظ آخر. انظر: مشكاة المصابيح ٢/ ٣٢٨، مسند أحمد ١/ ٢٩٣.

٢. سحنون: (ت ٢٤٠هـ) عبد السلام بن سعيد التنوخى، من أئمة الفقه القلائل. انظر: معجم المؤلفين ٥/ ٢٢٤. معجم الأعلام: ٢٩٥. الإعلام بوفيات الأعلام: ١٠٧.

٣. لم أقف على ترجمته.

٤. ابن عطاء الله: (ت ٧٠٧هـ) ابن عطاء الله السكندرى، تلميذ أبى العباس المرسى، أشهر صوفى زمانه، ومن أشد خصوم ابن تيميه، له الكثير من المصنفات منها: "التنوير فى إسقاط التدبير"، "الحكم العطائية"، "لطائف المنن". انظر: طبقات الشعرانى رقم ٣١٢.

وسحاب الخير له مطر فإذا جاء الإبّان تجى

السحاب: الغيم، ويجمع قياسًا على: سُحُب، وسَحَائب. والخير ضد الشرّ. والمطر واحد والأمطار المعروفة. والإبّان بالكسر وتشديد الباء: الوقت.

والشيخ لما سلى ذوى الشدائد بأنها وإن عظمت وتطاولت ففى ثناياها ألطاف. تؤذن بأن الشدّة لا بد أن يتكامل فرجها، أشار هنا إلى التزام الصبر فى زمن الشدة لأن الفرج لا يأتى إلاّ فى زمانه المقدر كالسحاب التى تكون عنها الخِصْب بنزول المطر لها وقت مقدر لا تحصل إلا فيه.

فالعاقل إذًا لا يسعه إلاّ الصبر، ويكون الجزع حينئذ محنة للقلب بغير فائدة بل يورث سخط الله ومقته فينبغى أن يكون حظه التسليم لمدبّر الأمور بحكمته وتحسين الظن بسعة رحمته.

قال الله تعالى حكاية عن العبد الصالح: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٤٤ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾[1].

فانظر كيف أعقب تفويضه الوقاية من الأسواء والنصر على الأعداء وبلوغ المراد. ثم إنّ انتظار الفرج بلزوم الصبر من أجل العبادات وعين عليه استحضار رحمة الله بعباده المؤمنين، وإنه عالم بعواقب الأمور، ولعل الفوائد فى صور الشدائد.

قال السيد الجليل أبو الحسن الشاذلى رحمه الله تعالى[2]: اللّهم إنّا قد عجزنا عن دفع الضُرّ عن أنفسنا من حيث نعلم، بما نعلم، فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لا نعلم بما لا نعلم.

ويكفى العاقل قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ﴾[3].

---

١. سورة غافر: ٤٤.

٢. أبو الحسن الشاذلى: (٥٩١ / ٦٥٦هـ)، أبو الحسن على بن عبد الله بن عبد الجبار بن يوسف بن هرمز الشاذلى المغربى رأس الطائفة الشاذلية، وواحد من كبار الأئمة المتصوفة فى عصره، سكن "شاذلة" قرب تونس، فنسب لها. انظر: معجم الأعلام: ٥٢٣. الإعلام بوفيات الأعلام: ٢٧٤.

٣. سورة البقرة: ٢١٦.

وقوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (١).

وليتذكر صبر أولى العزم على المصائب العظام من الأنبياء والأولياء والأعزة على الله عز وجل، وكم من أراد أمرًا فصرفه الله عنه، فوجد لذلك غمًا فى قلبه حتّى إذا كشف له عن خافيته علم أنه سبحانه نظر له بنظره السديد من حيث لا يدرى، ولطف به من حيث لا يعلم وما أحسن ما قيل:

تـوقع صـنع ربّك سـوف يـأتى ... بمـا تـهـواه من فـرج قـريب

ولا تـأيس إذا مـا نـاب خـطب ... فكم فى الغيب من عجب عجيب(٢)

وقال الآخر(٣):

إذا اشـتـدّ بك الأمـر ... فـفـكّـر فى "ألَم نَشرَح"(٤)

فـعُـسـر بين يُـسـرين ... إذا ذكـرته فـافـرَح

تـرى يُـسـرين قـد دَارَا ... عـلى عُـسـر فـلم يـبـرَح

وفـوائـد مـولانـا جُـمَلٌ ... لـسـروح الأنـفس والمُـهج

---

١. سورة: النساء: ١٩.

٢. البيت الثانى أورده الإمام الغزالى فى منهاج العابدين: ١٦٥. ولم أقف على قائله.

٣. الأبيات أوردها الغزالى فى منهاج العابدين: ١٦٥.

وأوردها الثعلبى فى "الكشف والبيان". فقال: سمعت أبا القاسم الحسن بن محمد بن الحسن النيسابورى يقول: سمعت أبا على محمد بن عامر البغدادى يقول سمعت عبد العزيز بن يحيى يقول: سمعت عمى يقول: سمعت العتبى يقول: كنت ذات يوم فى البادية بحالة من الغم، فألقى فى روعى بيت شعر فقلت:

أرى الموت لن أصبح ولاح مغمومًا له أروح

فلما جنَّ الليل سمعت هاتفا يهتف من الهواء يقول:

ألا أيـهـا المـرء الـ ... ـذى الـهـم به بـرح

وقـد أنـشـد بـيـتًـا لم ... يـزل فى فـكـره يـسـنح

إذا اشـتـد بك الـعـسـر ... فـفـكـر فى ألم نـشـرح

فـعـسـر بين يـسـرين ... إذا فـكـرتـهـا فـافـرح

قال: فحفظت الأبيات، وفرج الله غمى. انظر: الكشف والبيان ١٠/ ٢٣٥.

٤. إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ سورة الإنشراح.

الفوائد: جمع فائدة، وهى ما استفيد لنفع الدّين والدّنيا. والمولى: مفعل من الولى بالسكون وهو القرب، فالله تعالى ولى عبده أى: قريب منه بالمعنى لا بالمكان لاستحالته فى حقّه. جُمل أى: مستكثرة من أنواع لا تحصى.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ (١).

وواحد الجمل جملة: فعلة بمعنى مفعولة. والسروح بالمهملتين واحدة سرَح وهو فى الأصل المال السائر أى: الراعى كالبقر والإبل والغنم، واستُعمل هنا فى السارح من الأنفس لطلب منفعة معاش أو معاد، وروى بالمعجمة من شرح الصدر وجمعه باعتبار الأنواع. والمهج: جمع مهجة، قيل: هى الدم، وقيل: دم القلب خاصة، وقيل الروح، وهو مراده.

والمعنى: عطايا الله وافرة معدّة لشرح النفوس بإذهاب أحزانها فكيف ييأس العاقل عند اشتداد الأزمة، وتطاول الكربة مع أن فى ضمن الشدائد فوائد. فقد قال رجل للنّبى ﷺ أوصنى، فقال: لا تتهم الله فى أمر قضاه عليك.

وروى الشيخان[٢] عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى[٣] رضي الله عنهما أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: "ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصَب ولا سقم ولا حزن حتّى الهمّ يهمُّهُ إلا كفَّر الله من سيآته"[٤].

---

١. سورة النحل: ١٨.

٢. الشيخان: الإمام البخارى ومسلم وستأتى ترجمتهما لاحقًا.

٣. أبو هريرة: (ت٥٧هـ تقريبًا)، اختلف فى اسمه واسم أبيه اختلافًا كبيرًا. قال النووى: أصح الأقوال فيه: عبد الرحمن بن صخر، وهو من دوس قبيلة باليمن، كان من الحفاظ المواظبين على صحبة رسول الله(ﷺ) فى كل وقت، روى الكثير، وقد أسلم عام خيبر سنة ٧ هـ .انظر: المعارف: ٢٧٧. الإعلام: ٣٩.

. أبو سعيد الخدرى: (ت ٧٤هـ) سعد بن مالك، منسوب إلى الخُدرة، وهم من اليمن. صحابى. روى الحديث عن النبى (ﷺ). وكان أخًا لقتادة بن النعمان لأمه. انظر: المعارف: ٢٦٨. معجم الأعلام: ٣٠٠. الإعلام: ٤٦.

٤. صحيح مسلم (٢٥٧٣) ٤/ ١٩٩٢، شرح مشكل الآثار: ٥/ ٤٧٤.

ورويا من حديث ابن مسعود[١] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "ما من مسلم يصيبه أذى مرض فما سواه إلاّ حط الله به سيآته كما تحطّ الشجرة ورقها"[٢].

وروى البخاري[٣] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "من يُرد الله به خيرًا يصب منه"[٤].

وروى مسلم عن صُهيب[٥] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "عجبًا لأمر المؤمن إن أمره لله خير له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابه شرًا شكر فكان خيرًا له، وإن أصابه ضرًا صبر فكان خيرًا له"[٦].

---

١. ابن مسعود: (ت٣٢هـ بالمدينة) عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي. صحابي ابن صحابيه. كان سادس ستة في الإسلام لا مسلم غيرهم، هاجر الهجرتين، شهد بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله(ﷺ) وهو الذي احتز رأس أبي جهل في بدر. كان من سادة الصحابة وأوعية العلم وأئمة الهدى. انظر: المعارف: ٢٤٩. معجم الأعلام: ٤٥٩. الإعلام: ٣١.

٢. أورده البخاري ومسلم في صحيحيهما.

٣. البخاري: (١٩٤/ ٢٥٦هـ) أبو عبد الله، محمد إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة الجعفي، البخاري مولدًا. صاحب أهم كتاب في الحديث وهو الصحيح الذي قيل فيه إنه أصح كتاب بعد كتاب الله، له كثير من التصانيف منها: "الجامع الصحيح"، "الأدب المفرد"، "رفع اليدين في الصلاة"، "بر الوالدين"، "التاريخ الكبير".... وغيرها. انظر: معجم الأعلام: ٦٧٩. الإعلام: ١١٤.

٤. صحيح البخاري: ٥/ ٢١٤٣، وبلفظ آخر في الموطأ: ٢/ ٩٤١.

٥. مسلم: (٢٠٤/ ٢٦١هـ) أبو الحسين، مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كوشاذ القشيري النيسابوري، ثاني اثنين في التصنيف في الحديث، صاحب "الصحيح" له من التصانيف الكثير منها: "أوهام المحدثين"، "طبقات التابعين". انظر: مقدمة صحيح مسلم ١/٣. معجم الأعلام: ٨٣٧. الإعلام: ١١٦.

. صهيب: (ت ٣٨هـ بالمدينة) صهيب بن سنان الرومي، يعرف بذلك لأنه أخذ لسان الروم، إذ سبوه وهو صغير، وهو من النمر بن قاسط، عربي لا يختلف علماء النسب في ذلك كان أبوه عاملاً لكسرى، وكانت منازلهم بأرض الموصل، سُبي صهيب وهو صغير فنشأ بالروم فصار ألكن. وكان من السابقين الأولين للإسلام. وكان من المستضعفين بمكة، ودفن بالبقيع. انظر: المعارف: ٢٦٤.

٦. صحيح مسلم ٤/ ٢٢٩٥ كتاب الزهد(٥٣). ومشكاة المصابيح ٢/ ٣٢٧.

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: لا يكون عالمًا من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله لما يرجو بذلك من كفارة خطاياه.

وكان السلف الصالح يستوحشون إذا خرج عنهم عام لم يُصابوا فيه بنقص من نفس أو مال.

ويقال: لا يخلو المؤمن فى كل أربعين يومًا أن يروّع بروعة أو يُصاب بنكبة، وكانوا يكرهون فقد ذلك فى هذا العدد.

ولـهـا أرج مُـحـيى أبـدًا فـاقْـصِـد مَـحْـيَـا ذاك الأرج

الأرج: انتشار ريح الطيب. والإحياء، وهى صفة تقتضى الحس والحركة الإرادية. والأبد: الدائم. والقصد هنا: الاتيان. والمحيا بفتح الميم: مفعل من الحياة يطلق عليها وعلى زمانها ومكانها كالممات وجمعها محاوى وممات، والضمير المجرور عائد على الفوائد.

فأخبر بأن لتلك الفوائد أمورًا تدل عليها وأسبابًا توصل إليها وهى ما يمن الله تعالى من المعاملات الدينيّة أخذًا من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (٢).

قال أبو العباس المرسى قدّس الله سرّه(٣) : للناس أسباب، وسببنا نحن الإيمان والتقوى. ثم أمر الناظم بتلك المراعاة بقوله: فاقصد إلى آخره أى: اقصد ذلك الأرج الشريف وزمانه أو مكانه.

فـلـربّـمـا فـاض المَـحْـيَـا بـبـحـور المـوج من الـلّـجج

---

١. سورة الأعراف: ٩٦.

٢. سورة الطلاق: ٢، ٣.

٣. أبو العباس المرسى: (ت٦٨٦هـ) الشيخ الإمام أحمد. أبو العباس المرسى. كان من أكابر العارفين كان يقال: إنه لم يرث علم الشيخ أبى الحسن الشاذلى عنه غير أبى العباس المرسى، وهو من أجل من أُخِذ عنه الطريق. لم يضع شيئا من الكتب. انظر: طبقات الشعرانى رقم ٣١٠.

ربّت: لتأنيث الكلمة. وفيض الماء: كثرته حتّى يسيل ثم تستعار لكثرة المعروف وهو المراد هنا. والبحور: جمع بحر خلاف البرّ سمّى بحرًا لعمقه وسعته، ويستعار لسعة المعروف. والموج: الارتفاع يقال: ماج البحر موجًا إذا ارتفع ماؤه واضطرب. واللجج: جمع لجة وهو معظم الماء ومنه بحر لُجّى.

المعنى إن امتثلت أمرين يغمرك فضل الله فى الدارين فيذهب غمك ووصبك وتتعجل مسرّتك وفيض مولاك عليك خيرًا واسعًا كالبحور المتلاطمة أمواجها من كثرتها، ومن توكل على الله فى أوقات شدّته واحتداد كربته واقتنص الفوائد من الشدائد بلزوم الصبر والتسليم والرضا بما قدره الله جلّ جلاله ثم حسن الظن بالله تعالى الذى هو ثمرة المعرفة، فاض محياه لا محالة بخير كثير فى الدنيا والآخرة، وشاهد من عجائب صنع الله وخفى لطفه ووفى كرمه ما قضى منه العجب.

والخلق جميعًا فى يده فذوو سعةٍ وذوو حَرَج

جميعًا: فعيلاً بمعنى مفعول من الجمع وضم المتفرق. واليد: فى الأصل الجارحة وتطلق على النعمة مجازًا لصدورها عنها، وعلى القدرة أيضًا لظهور سلطانها بها، ولما أضافها إلى المولى سبحانه وتعالى بطل قطعًا إرادة المعنى الحقيقى لاستحالته فى حقّه تعالى، فالظاهر أنه أراد بها القدرة. والسعة: مصدر من وسع الشىء سعة إذا صار واسعًا وحقيقة الواسع كلّ محل تحمل من الأجزاء والأعيان أكثر ما تحمله ضدّه الذى هو الضيق. والحرج: الضيق.

والمعنى: أن الخلائق كلّ واحد منهم كائن فى نفوذ قدرته تعالى فيه بما أراد، فمنه العطاء والمنع، والضر والنفع، والسعة والضيق لا يسل عما يفعل.

ونزولهم وطلوعهم فإلى درك وعلى درَج

النزول: الانتقال من علو إلى أسفل، وستعار لتبدل الأحوال الشريفة بالخسيسة. والطلوع ضدّه فيهما. والدرج: اسم جنسه واحده درجة وهى المرقاة، وأيضًا الواحدة من طبقات المراتب المرتفعة. والدرك بفتح الراء وسكونها: القعر ضد درك جهنّم، وهى ضد الدرج، ومن ثمّ قيل: الجنة درجات، والنار دركات.

أشار فى هذا البيت والذى قبله إلى معنى قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[١] لينبِّه على استشعار الخوف والرجاء والتوكل والتسليم لأمر الله والتفويض إليه فى الأمور، ليؤكد أمر الصبر الذى هو أساس التقوى من حيث أن القيومية مقتضاها تفرد الحق بالقيام على خلقه فى الدنيا والآخرة، ولما كان المعنى الشريف يوجب لمن قام به منزلة عند الله وعند الناس، وضدّه يوجب له الانحطاط، استعار الناظم لذلك الطلوع والنزول.

ومَعَايِشُهُم وعواقبهم ليست فى المشى على عوج

المعيشة: من العيش وهو الحياة اسم لما يعاش به من المطاعم والمشارب. والعاقبة: آخر الأمر. والمشى: معروف، وهو هنا استعارة لحصول المعايش والعواقب شيئًا فشيئًا فكأنها ماشية إلى من ينتفع بها قاصدة إليه، وفى هذا إشارة إلى الإجمال فى الطلب فقد قال سيّدنا رسول الله ﷺ: "اتقوا الله واجملوا فى الطلب"[٢] فالحرص حينئذ لا يحصل شيئًا لم يقدر وضدّه لا يمنعه.

والعوج بكسر العين: ما كان غير منتصب القامة كالأرض، وأما ما كان منتصبًا كالرمح فهو عوج بفتحها.

ومعنى البيت: أن معايش الخلق وأسبابهم فى الدنيا، وعواقبهم فى الآخرة مرادة مقدرة تتوجه إليهم على سابق علمه ونافذ حكمه، ليست اتفاقية فتكون مضطربة غير مستقيمة، بل هى فى ترتيبها وتقديرها كطلوعهم ونزولهم وسعتهم وحرجهم.

حِكَمٌ نُسجِتْ بيدِ حكمت ثم انتسجَتْ بالمنتسج

الحكمة: صواب الأمر وسدادُه وأفعال الله كذلك: لأنه يتصرف فى خلقه بمقتضى الملك فيفعل ما يشاء وافق غرض العبد أم لا، "لا يسل عما يفعل وهم يسألون"[٣]، ولا خفاء بعدم إرادة حقيقة اليد، فالمراد: القدرة. والانتساج: مطاوع

---

١. سورة البقرة: ٢٥٦.

٢. نوادر الأصول: ٢/ ٢٨٨، مصنف عبد الرزاق ١١/ ١٢٥، سنن ابن ماجه ٢/ ٧٢٥.

٣. إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ الأنبياء: ٢٣.

النسج وهو الالتحام بحيث يكون المنسوجان كلحم واحد، وهو هنا استعارة لشدة لزوم المقادير للعبد، فكأنها كذلك ملتحمة به إذ لا انفكاك عنها ولا لها عنه، والمنتسج: الملتحم، وهو هنا العبد المقضى عليه.

فالناظم شبّه العبد بسدّ النسجة من حيث كونه هدفًا ومحلاً متغيرًا ظاهرًا وباطنًا بتلك المقادير المتعلقة به المتعاقبة عليه كتغير سدّ النسجة حالاً ومآلاً بما يرد عليه من الخيوط فلا محيد له عما قدر الله عليه فى الأزل من سعة وضيق، وفرج وحزن، وغير ذلك.

قال نبيّنا محمّد ﷺ: "اعملوا فكل ميسّر لما خلق له"[١].

فإذا اقتصدت ثمّ انعرجت فبمقتصد وبمنعرج

الاقتصاد: افتعال من القصد وهو التوسط بين الإسراف والتقتير. والانعراج: الانعطاف والميل عن القصد. والمقتصد بفتح الصاد: موضع الاقتصاد، وبكسرها: اسم الفاعل، وهو المروى هنا عند الشارح. والمنعرج بفتح الراء: موضع الانعراج، والرواية عند الشارح بكسرها كالمقتصد.

لما بيّن الشيخ رحمه الله أن حركات الخلائق ومساكنهم صادرة عن القدرة الأزلية بالحكمة الإلهية أعقب ذلك ببيان أن تلك المقادير سداد وصواب فى نفس الأمر، سواء حكم العقل باقتصادها أى توسطها فى السداد أو حكم بانعراجها أى ميلها عنه ويظهر حينئذ فى العبد المقضى عليه بها تأثر بها وتكيف بأحوالها فتتبدل عليه الأحوال[٢] ويصير مقتصدًا إن اقتصدت، ومنعرجًا إن انعرجت فيتعرف إليه الحق جلّ جلاله فى حال اقتصادها باسمه الحليم اللطيف ونحوه، وفى حال انعراجها باسمه القاهر العدل الحكم ونحوه. وأما فى نفس الأمر فهى

---

١. مسند الامام أحمد (٦٢١) ١/ ٨٢.

٢. الأحوال: الحال عند أهل الحق - الصوفية - هو معنى يرد على القلب من غير تصنُّع ولا اجتلاب ولا اكتساب من طرب أو حزن أو قبض أو بسط أو هيبة، ونزول بظهور صفات النفس، فإذا دام وصار ملكًا يسمى مقامًا، فالأحوال مواهب، والمقامات مكاسب، والأحوال تحصل بالجود والمقامات تحصل ببذل المجهود. انظر: التعريفات: ٩٤. لطائف الإعلام: ١/ ٤٠٣.

سداد وصواب لأنها صادرة عن ملك الملوك المتصرف فى ملكه كيف يشاء ويختار، وقد استأثر الله تعالى بعلمه الحكمة فى ذلك، وأخفاه عن خواص خلقه. فالواجب على العبد حينئذ تسليم الأمر لمن له الخلق والأمر، لا إله إلاّ هو.

شهدتْ بعجائبها حُجَجٌ قامت بالأمر على الحُجَج

الشهادة: خبر قاطع عن أمر يختص بمعنى يتضمن صور المخبر فيخرج الاقرار، وأصلها البيان وهو المراد فى البيت، ومنه قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ (١) ولمّا كان الخبر الخاص مبينًا للحق من الباطل سمّى شهادة، وسُمّى المخبر به شاهدًا، فلهذا شبه الدلالة فى كمال وضوحها بالشهادة. والعجائب: جمع عجيبة وهو ما يتعجب منه. والحُجج بضم الحاء المهملة: البراهين فى الأصل، وعند النظار أن الحجة أعم من البرهان؛ لاختصاصه عندهم بيقينى المقدمات. والقيام هنا الاستقلال من قولهم قام بالأمر أى: استقل به حتّى يقضى الغرض منه. والأمر: واحد الأمور، والمراد به هنا للشأن أى: بشأن الربوبية. والحجج بالكسر: حجّة وهى السنة. والضمير فى عجائبها يرجع إلى الحكم.

والمعنى شهدت بعجائب تلك الحكم الحجج والبراهين المستقلّة بالدلالة على شأن الربوبيّة ودامت على مر السنين وهى دائمة إلى أبد الأبدين فليس فى الكون ذرة إلا وهى شاهدة بلسان الحال بتفرّد ذى الجلال بالخلق والإبداع والتدبير والاختراع.

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (٢).

ورضًا بقضاء الله حجا فعلى مركوزتها فَعُج

الرضاء: مقصور مكسور الأول: قَبول ما يرد من قبل الله تعالى. والحجا: العقل ومركز الدائرة، ومركوزتها: وسطها. وعاج عليه عوجًا أى: عطف. وقضاء الله: صنعه وتقديره. والتحقيق أن القضاء وجود جميع المخلوقات فى الكتاب المبين واللّوح المحفوظ مجملة على سبيل الإبداع، والتقدير عبارة عن وجودها منزلة فى الأعيان بعد حصول شرائطها مفصلة واحدة بعد واحدة.

---

١. سورة آل عمران: ١٨.

٢. سورة الأعراف: ١٨٤.

قال الله تعالى ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (١) أى: أبرزه على ما سبق فى علمه فى الوجود الخارجى على وفق الوجود العلمى، وقد يطلق القضاء على الشىء المقضى نفسه وهو الواقع فى قوله ﷺ: "اللّهم إنى أعوذ بك من جهد البلاء، ومن درك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء"(٢).

ولا يجب الرضى به على هذا المعنى ولذلك استعاذ منه ﷺ فى الحديث المذكور بخلافه على المعنى الأول فإنه يجب الرضى به بل من لم يتذلل لربّه عند نزول الملمّات وسأل منه إقالة العثرات فهو جبّار عنيد عن الخير والفرج بعيد عنه، وفيه قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ (٣).

ذمهم على ترك التضرع إليه فى كشف ما نزل بهم. فالواجب الرضا بالقضاء أى: بحكم الله وتصرفه وأما المقضى فلا، إلا إذا كان مطلوبًا شرعًا كالإيمان ونحوه.

وقد ورد أن الله تعالى يقول: "من لم يرض بقضائى ولم يصبر على بلائى ولم يشكر نعمائى فليتخذ إلهًا سواى"(٤).

وذكر الإمام القشيرى(٥) رحمه الله تعالى أنّ موسى عليه الصلاة والسلام قال: إلهى دلّنى على عمل إذا عملته رضيت على فقال: إنّك لا تطيق ذلك فخرّ موسى ساجدًا متضرعًا. فقال: يا بن عمران: إنّ رضاى فى رضاك بقضاى.

وقال بعض الزهّاد: إذا كان القدر حقًا، فالهم فضل.

---

١. سورة الفرقان: ٢.

٢. صحيح البخارى: ٥/ ٢٣٢٦.

٣. سورة المؤمنون: ٧٧.

٤. الحديث أورده الطبرانى فى الكبير، وابن حبان عن أبى هند، وأورده الغزالى فى منهاج العابدين: ١٥٩.

٥. القشيرى: (٣٧٦ - ٤٦٥هـ) زين الإسلام، عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيرى، عربى النسب، يتصل إلى قشير العدنانية. بدأ دارسًا للحساب ثم تحوّل إلى الفقه والكلام والحديث والتفسير والأدب، اشتغل بالتدريس فى مسجد طراز، له أكثر من خمسة وعشرين مصنفًا منها: "ترتيب السلوك"، "التحبير فى التذكير"، "اللمع" وله تفسير لطائف الإشارات. انظر: مقدمة لطائف الإشارات ١/ ٧.

وقيل للحسن بن على[١] رضى الله عنهما. إنّ أبا ذر[٢] يقول: الفقر أحب إلىّ من الغنى، والسقم أحبّ إلىّ من الصحّة .فقال رحم الله أبا ذر: أما أنا فأقول: من اتكل على حسن اختيار الله لم يتمنّ غير ما اختار الله له.

إذا عرفت هذا فمعنى البيت: إنّ الرّضا لما كان أشرف درجات العقل الذى مُنحه الانسان وأُكرِم به من سائر الحيوان، وكان أجل المطالب الربّانية، فينبغى لكلّ عاقل أن يطلب أعلاه وأشرفه الذى مدار صحّة الإيمان عليه كمركوزة الدائرة وعوّج بطلبه عليه فيطلبه من جميع أسبابه الموصولة مثل عوج محيط الدائرة بمركزها.

وإذا انفتحت أبوابُ هُدًى فاعجل لخزائنها ولُج

الانفتاح: معروف، وهو هنا استعارة لتلك الموانع والحُجُب والعلائق لأنّها مانعة من الهدى، والهُدى مصدر هداك الله للدين هدًى: أرشدك، والضلال ضدّه. والعجل: الإسراع، وفى التنزيل ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾[٣]، والخزائن: واحده خزانة بكسر الخاء وهو ما يُخزن فيه. والولوج: الدخول فى الشىء.

يعنى: إن تيسر لك لحوق بمقام من مقامات[٤] الهدى الكسبية لم تكن حاصلة لك قبل ذلك فبادر إليها على أى حالة كنت، وانتهز فرصة الإمكان قبل مفاجآت الموت وحصول الفوت ولا تسوِّف بفراغك من شغل أنت فيه فإنّ ذلك ضرب من الحماقة، إذ قد يهجم عليك الموت أو يزداد شغلك وتتبدّل نيّتك.

---

١. الحسن بن على: (٣هـ/ ٤٩هـ) الحسن بن على بن أبى طالب، أبو محمد، ولد فى نصف رمضان، كان أشبه الناس وجهًا برسول الله (ﷺ) وتوفى مسمومًا. انظر: المعين فى طبقات المحدثين: ٢٢ ـ معجم الأعلام: ١٩٩ ـ الإعلام: ٣٦.

٢. أبو ذر: (ت٣١هـ) مختلف فى اسمه واسم أبيه، والمشهور إنه: جندب بن جنادة بن سكن، واسم أمه: رملة بنت الوقيعة، غفارية أيضا، وقصة إسلامه فى الصحيحين. روى كثيرًا عن رسول الله (ﷺ)، وتوفى بالربذة. انظر: المعارف: ٢٥٢. المعين: ٣٢ ـ الإعلام: ٣١.

٣. سورة طه: ٨٤.

٤. المقامات: المقام فى اصطلاح أهل الحقيقة عبارة عما يتوصّل إليه بنوع تصرف، ويتحقق به بضرب تطلّب ومعاناة فمقام كل واحد موضع إقامته عند ذلك، وللمقامات أنواع كثيرة. انظر: التعريفات: ٢٥٤. لطائف الإعلام: ٢/ ٣٢٥.

قال الإمام المحقق ابن عطاء الله[١] رحمه الله تعالى: إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رُعُونات النفوس.

وإذا حاولتَ نهايتها فاحذر إذ ذاك من العَرج

المحاولة: طلب التحوُّل أى الانتقال. والنهاية: الغاية التى ستقضى الشىء بها أو عندها، وقد يُسمّى لها ثمرة الشىء وفائدته، ومنه قولهم: غاية العلم خشية الله والسعادة العظمى. والحذر: والتحذر. العرج: مصدر عَرج بالفتح إذا أصابه شىء فمشى مشية العُرجان وليس بخلقه. والضمير فى نهايتها يعود إلى الأبواب أو إلى الهُدى لأنه يُذكَّر ويؤنَّث.

واعلم أن الشيخ لَما أمر بالبداية عند ارتفاع الموانع تمّم ذلك بأن الله تعالى إذا أدخلك مقامًا فالتزم فيه حسن الأدب فى اختيارك البدء والبقاء فيه، وراقب الله فى مراعاة آدابه وواثق مراده.

وأما إذا تشوّف المريد[٢] إلى الانتقال بنفسه ليبلغ الغاية، فقد بلغ المريد غاية الجهل وأساء الأدب فى حضرة مولاه فليحذر عند ذلك من عدم الظفر بالمطلوب.

قال الإمام الجليل أبو عثمان[٣] رحمه الله: منذ أربعين سنة ما أقامنى الله فى حال فكرهته ولا يقلنى إلى غيره فسخطته.

لتكونَ من السُّبَّاق إذا ما جئتَ إلى تلك الفُرُج

يعنى: إذا امتثلت ما قُدِّر لك تكون من السبّاق إلى قطع تلك الفُرُج الواسعة فتصل معهم إلى المطلوب الأعظم قريبًا بتسليمك لله والوثوق به لا بما سواه والركون إليه لا إلى غيره كائنًا من كَان، لأنّ الركون إلى غير الله موجب للوبال.

الفُرُج بضمّها: الأماكن المتّسعة جمع فرجة.

---

١. سبق الترجمة له.

٢. المرّيد: عند الصوفية هو المجرد عن الإرادة. وقال ابن عربى: هو من انقطع إلى الله وتجرد عن إرادته، فلا يريد إلا ما يريده الحق. انظر: التعريفات: ٢٣٩.

٣. أبو عثمان الحيرى: (ت٢٩٨هـ) أبو عثمان، سعيد بن اسماعيل بن سعد بن منصور الحيرى النيسابورى. أصله من الرى، لكنه أقام بنيسابور ومات بها. انظر: حيلة الأولياء: ١٠/ ٤٤. كشف الحجوب: ١/ ٣٤٤. تذكرة الأولياء: ٢/ ٩٣. والنص بالتذكرة: ٢/ ٩٦.

أشار بها إلى العقبات السبع المقررة فى "منهاج العابدين" للإمام حجّة الإسلام الغزالى[١] رحمه الله تعالى والسير فيها ليس بفعل الإقدام، وإنّما هو بنظر القلب وتأمله.

قال الشيخ أبو مدين[٢]: رأيت من قطعها فى سبعين عامًا، فقطع كلّ عقبة فى عشر سنين، ورأيت من قطعها كلّها فى ساعة واحدة كإبراهيم بن أدهم[٣] الذى جاءه التوفيق.

قال الشارح: وأبو مدين هذا وقع له قريب ممّا وقع لإبراهيم بن أدهم رحمهما الله تعالى.

فهناك العيش وبهجته فلمُبتَهِج ولِمُنتَهِج

العيش: الحياة. وبهجته: حُسنه.

والمراد هنا عيش الجنّة وحسنه، "وهناك" فى هذا التركيب: اسم إشارة للمكان والزمان قال الشاعر:

وإذا الأمور تعاظمت وتشابهت فهناك تعترفون أين المَفزع[٤]

والمبتهج: المسرور، من الابتهاج وهو السرور. والمنتهج بالنون: من نهجت الطريق أى سلكته، والنهج بالسكون فقط هو: الطريق، وهو هنا استعارة للسلوك،

---

١. الإمام الغزالى: سبق الترجمة له. أما العقبات السبع المذكورة، فقال الإمام الغزالى: "فاعلم الآن بتوفيق الله أن الحاصل من الجملة (العبادة) سبع عقبات: الأولى: العلم، والثانية: التوبة، والثالثة: العلائق، والرابعة: العوارض، والخامسة: البواعث، والسادسة: القوادح، والسابعة: الحمد والشكر. وقد شرحها الإمام فى كتابه. انظر: منهاج العابدين: ٢٠ ومابعدها.

٢. أبو مدين: (ت٥٩٤هـ) شعيب بن الحسن الأندلسى، من ناحية إشبيلية. شيخ فقيه محقق. شيخ مشايخ الإسلام فى عصره. إمام العباد والزهاد. كتب عنه ابن قنفذ كتابا سماه "أنس الفقير وعز الحقير". انظر: جذوة الاقتباس: ٣٣٢ عنوان الدراية: ٢٢. نيل الابتهاج: ١٩٣. معجم الأعلام: ٣٣٤.

٣. إبراهيم بن أدهم: (ت١٦١هـ) أبو إسحاق، إبراهيم بن أدهم بن منصور التميمى البلخى، من أهل بلخ، كان من أبناء الملوك والمياسير، خرج للصيد فهتف به هاتف أيقظه من غفلته، فترك طرقته فى التزين بالدنيا، ورنع إلى طريقة أهل الزهد والورع. انظر: طبقات الصوفية: ١٢. معجم الأعلام: ١٠.

٤. البيت للأفوه الأودى بديوانه (الطرائف الأدبية): ١٩، وهو بهمع الهوامع ١/ ٣٠٥.

والمنتهج: المتقى، وانتهاجه إنّما هو بانتقاله فعلاً وحالاً فى معانى التقوى الظاهرة والباطنة الموصلة إلى صفة اليقين الموجب للابتهاج.

يعنى: أنه ما كان حسن الحياة إلاّ عند قطع تلك الفرج والوصول إلى النعيم المقيم فإنَ الواصل السابق قد نزل فى سهل الوصل، ورياض المحبة، وبساتين الأنس متنعمًا بهذه المقامات والأحوال آيام حياته وبالملك الدائم فى الآخرة بفضل الله تعالى.

قال الله تعالى:﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ (١).

وقال ﷺ: "يقول الله تعالى: أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"(٢).

وما عدَا المبتهج والمنتهج، إما هالك كالكفرة أو فى الخطر كالفجرة، فنسأل الله أن يحفظنا بفضله.

فهج الأعمالَ إذا دركتْ وإذا ماهجت إذًا تهج

هاج الشىء أى: ثار وتحرك، وهاجه غيره يتعدّى ولا يتعدّى وقد استعملها الناظم. والركود: السكون، يقال: ركد الماء بفتحها يركد فهو راكد لما غبطه بحالة المبتهج والمنتهج أعقب ذلك بالحث على مسالك تلك الأعمال الصالحة فقال: إذا رأيت من نفسك فتورًا فحركها فى الأعمال بآن تذكّرها غايتها وما يترتب عليها من الملك العظيم فإنّها حينئذ تهيج وتنشط.

سئلت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها(٣) عن عمل رسول الله ﷺ فقالت: كان عمله دينه.

---

١. سورة السجدة: ١٧.

٢. صحيح البخارى (فتح البارى) ٦/ ٣١٨ كتاب بدء الخلق (٥٩) باب ما جاء فى صفة الجنة. ومسلم ٤/ ٢١٧٤ كتاب الجنة(٥١)، رقم (٢ ـ ٢٨٢٤). ومشكاة المصابيح ٢/ ٣٩٧ حديث رقم (٥٦١٢).

٣. عائشة (أم المؤمنين): (ت٥٧ هـ تقريبًا) أم عبد الله، حبيبة رسول الله (ﷺ)، بنت خليفة رسول الله (ﷺ) أبى بكر الصديق، من أكبر فقهاء الصحابة، حدَّث عنها جماعة منهم، ومن التابعين كابن المسيب وعروة، وغيرهم. قال عروة: ما رأينا أحدًا أعلم بالطب منها، توفيت عن خمس وستين سنة. انظر: المعين: ٣٩. المعارف: ٥٥٠. معجم الأعلام: ٣٧٣. الإعلام: ٣٩.

وقال ﷺ: أحبّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قل[١].

ورُئى الجنيد[٢] رحمه الله وفى يده مسبحة فقيل له: أنت بشرفك تأخذ بيدك مسبحة فقال: نعم سبب وصلنا به إلى ما وصلنا فلا نتركه أبدًا. وكان يدخل كلّ يوم حانوته ويسبل الستر ويصلى أربع مائة ركعة.

وقال الإمام أبو طالب المكى[٣] رحمه الله تعالى: مدوامة الأوراد من أخلاق المؤمنين، وطرق العابدين، وهى مزيد الإيمان، وعلامة الايقان، ولا تنشط النفس إلى العمل وتدوم عليه أبدًا إلا باستشعار الخوف والرجاء وذلك بالمواظبة على ذكر مقدماتها من استحضار عظمة الله تعالى ووعده ووعيده ونحو ذلك[٤].

ومعاصِ الله سَمَاجَتُها تزدان لذى الخُلُق السَّمِج[٥]

المعصية: مخالفة أمر الله ونهيه. والسماجة: القبح. والازديان: التزين والحسن. وذى فى قوله لذى بمعنى صاحب. والخلق: ما طُبِعَ عليه الإنسان من المعانى التى تصدر الأفعال عنها بلا كلفة بل بسهولة مثل الكرم والشجاعة ونحوها أو ضدها.

يعنى: أن قبح معاصى الله لا تحسن إلاّ فى نظر ذى الجهل الراسخ والغفلة التامة المعرض عن دلائل معرفة الله تعالى؛ لتمكن القسوة من قلبه فلا يقبل الحق وإن أضاءت دلائله، ويعرف الضلال وإن خفيت مخائله.

---

١. مسند الإمام أحمد ٦/ ٢٧٣.

٢. الجنيد: (ت٢٩٧هـ) أبو القاسم الجنيد بن محمد الخزاز، أصله من نهاوند، ومنشأه بالعراق، من متصوفة الطبقة الثانية، كان فقيهًا، مفتيًا فى حلقته، من أئمة القوم وساداتهم. انظر: طبقات الصوفية: ٣٦. تذكرة الأولياء: ٢/ ١٩. معجم الأعلام: ١٧٤. الإعلام: ١٢٩.

٣. أبو طالب المكى: (ت٣٨٦هـ/ ٩٩٦م) محمد بن على بن عطية الحارثى، أبو طالب المكى، واعظ، زاهد، فقيه، من أهل الجبل (بين بغداد وواسط) له الكثير من التصانيف أشهرها: "قوت القلوب فى معاملة المحبوب". انظر: معجم الأعلام: ٧٥٢. الإعلام: ١٦٣.

٤. بتر فى نسخة الأزهر بمقدار ورقة كاملة، إذ يبدأ بعد هذا بالبيت:

فكن المرضى لها بتقى .....

٥. فى بعض الروايات: تزداد لذى الخلق السمج.

قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [١].

أى: غطاء عليها فلا تقبل معروفًا ولا تصلح للموعظة.

وقال السيد الجليل الحسن البصرى[٢]: الرَين: هو الذّنب حتّى يموت القلب.

وقال بعض الصالحين: إنّ سواد القلب من الذّنوب وعلامته أن لا يجد للذنب منزعًا ولا للطاعة موقعًا.

وقال سيدنا حذيفة[٣] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: القلب كالكف فاذا أذنب العبد انقبض وقبض إصبعًا ثم إذا أذنب انقبض وقبض إصبعًا آخر ثم كذلك فى الثالث والرابع حتى ينقبض الكف ويُطبع عليه بذلك الرين.

وفى الخبر أنه يخرج المنادى من الزبانية قائلاً: أين فلان بن فلان بن فلان المسوِّف نفسه فى الدنيا بطول الأمل، المضيّع عمره فى سوء العمل، فيبتدرونه بمقامع من حديد، ويستقبلونه بعظائم التهديد، ويسوقونه إلى العذاب الشديد، وينكّسونه فى قعر جهنم البعيد.

ولطاعته وصباحتها أنوار صَباحٍ مُنْبَلِج[٤]

الطاعة: امتثال الأمر والنهى. والصباحة: الجمال، والنور: الضياء والصباح، الذى روى بلج الصبح بكسر لامه بلوجًا: أسفر أوله. قاله ابن طريف. وقال الجوهرى[٥]: بَلَج بالفتح يَبْلُج بالضم أى: أضاء، وابتلج وتبلج مثله.

---

١. سورة المطففين: ١٤.

٢. الحسن البصرى: (ت١١٠هـ) أبو سعيد، الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى، من سادات التابعين وكبرائهم، جمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة، أبوه مولى زيد بن ثابت الأنصارى، أمه أم سلمة زوج النبى (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مولده لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب توفى بالبصرة. انظر: المعارف: ٤٤٠. وفيات الأعيان ٢/ ٦٩. المعين: ٥٠. معجم الأعلام: ١٩٤.

٣. حذيفة: (ت٣٦هـ) حذيفة بن اليمان، وهو حذيفة بن حسل بن جابر. هاجر إلى المدينة وشهد أحدًا، وبها قتل أبوه، صاحب سرّ رسول الله(صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فى المنافقين، كان موته بعد مقتل عثمان(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) بأربعين ليلة، قتل أباه عتبة بن مسعود، كفله رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ). انظر المعارف: ٢٦٣. المعين: ٢٢.

٤. فى بعض الرويات: ولطاعته وسماحتها.

٥. الجوهرى: (ت٣٩٨هـ) إسماعيل بن حماد الجوهرى، من الفاراب، إحدى بلاد الترك، إمام فى اللغة، له كتاب "الصحاح" فى اللغة أشهر من أن يعرف به. توفى بنيسابور. انظر: أنباة الرواة: ١/ ١٩٥. معجم الأعلام: ١٠٢.

يعنى: طاعة الله الحسن والجمال كظهور ضوء الصباح ووضوحه تُذهِب ظلمات الجهل عن القلب، لا يخفى صفو مشربها وحلو موردها إلا على من عميت بصيرته وجثت سريرته من الجهلة الغافلين والمردة المعرضين.

من يخطب حور العين بها يظفر بالحور وبالغنج[1]

الخطبة بكسر الخاء: طلب التزويج. والحور: شدّة بياض العين فى شدّة سوادها، يقال: امرأة حوراء بينة الحور، والذى على الأخبار أن حور الجنة هن الكاملات الحسن فى صفاء اللون وغيره وذلك لا يوجد فى الدنيا. والخلد: دوام البقاء، وسميت به الجنة لأنها دار البقاء الدائم السالم. والظفر بفتح الفاء هو: الفوز بالمطلوب، وهو مصدر ظفر به وعليه، وظفره إذ ألحقه. والغنج بفتح الغين والنون، وبضم الغين وسكون النون هو: حسن الشكل يقال: غنجت الجارية بالكسر غنجًا بالفتح وتغنجت فهى غنجاء من جوار غنج مثل حمراء من نساء حمر.

يعنى: من يطلب من الله بالطاعة تلك الجوارى الباقيات يفز بأكملهن جمالاً وشكلاً.

والشيخ لما أشار إلى مقام التوبة بتقييم المعصية وتحسين الطاعة حالاً ومآلاً رغّب أهل البداية فى فعلها بوصف نساء أهل الجنة فانّ ذلك أقرب لانفعالهم، بخلاف أهل النهاية فإنهم لا يلتفتون إلى ذلك، ولهذا رغبهم فى مداومة الأعمال بأنها سببٌ لاقتباس الأنوار كما قررناه عند قوله "فهناك العيش وبهجته".

وقد قال سيدنا رسول الله ﷺ: "غدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ولو أن امرأة من نساء أهل الجنّة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأته ريحًا ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها"[2] يعنى: خمارها.

---

١. فى بعض الروايات: يحظى بالحور وبالغنج.

٢. صحيح البخارى: ٥/ ٢٤٠١، صحيح مسلم ٣/ ١٥٠٠.

وعنه ﷺ "أنّ الرجل من أهل الجنّة ليتزوج خمسمائة حوراء أو أربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كلّ واحدة منهن مقدار عمر الدنيا"[١].

فكن المرضى لها بتُقى ترضاه غداً وتكون نجى

قال الجوهرى: التقى على وزن هدى والتقوى بمعنى واحد، والمراد بقوله غداً: يوم القيامة. والنجى: فعيل بمعنى فاعل من نجوت من المكروه.

يعنى: كن لها كفؤًا مرضيًا تبقى كالكامل المقبول الذى ترضاه يوم القيامة لما شهد من النجاة الموجبة للنعيم المقيم الأبدى، ولا يكون كذلك إلاّ إذا وقع على وفق الشرع .فأشار بهذا إلى أنّه ينبغى للمريد أن يحرص على الأعمال الصالحة المقبولة ثم يرجو هذه النجاة وهذا الظفر فإنّه حينئذ يرجى له الحصول على مطلوبه، وأما الرجاء من غير عمل فهو الأمنية الكاذبة.

وفيه قال رسول الله ﷺ: "الكّيسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتّبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأمانى"[٢].

وروى أنه جاء رجل إلى سيدنا رسول الله (ﷺ) فقال: أوصنى يا رسول الله فقال: "عليك بتقوى الله فإنّها جماع كلّ خير، وعليك بالجهاد فإنّه رهبانية المسلم، وعليك بذكر الله فإنّه نور لقلبك"[٣].

وقوله: ترضاه غداً، جملة فى محل خفض نعت لتقى.

وقوله: وتكون نجى، جملة معطوفة على الأولى، ولا بد من تقدير ضمير مجرور رابط بين النعت وصاحبه أى: به، ووقف على خبر يكون المنصوب بحذف ألف التنوين، وهى لغة معروفة[٤] وحققه بحذف يائه الثانية للضرورة.

واتل القرآن بقلب ذى حُرق وبصوت فيه شجى

---

١. صفة الجنة لابن أبى الدنيا: ١/ ٢٨٦.

٢. سنن ابن ماجه: ٢/ ١٤٢٣.

٣. رواه الطبرانى فى المعجم الصغير ٢/ ٦٦، والسيوطى فى الدر المنثور ٦/ ٩٩، ومجمع الزوائد ٤/ ٢١٥.

٤. المراد بها لغة ربيعة، والأصل أن تكون "نجيًا" وهى من المكروهات.

قال الإمام أبو عبيد[١]: سُمّى الكلام المنزل للإعجاز بسورة منه قرآنًا لأنه يجمع السور وضمها. وتلاوته اتباع بعضه بعضًا. والقلب: الفؤاد، وطلق على العقل لأنّه محله على الصحيح.

قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [٢].

أى: العقل، وقال: الفَّراء[٣] فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [٤] أى: عقل.

والحُرَق بضم الحاء وفتح الراء وبالقاف: جمع حرقة اسم للاحتراق.

والمعنى: قلب محروق من الخوف والحزن، وروى بدل حرق حزن بفتح الحاء والزاى، وضم الحاء وسكون الزاى. وهو خلاف السرور. وشجى أى: حزن.

فأمر الشيخ بالتلاوة للقرآن لأنها أفضل الأقوال، وأشار إلى أنّ النافع منها هو ما قارنه التدبر والحزن ورقّة القلب.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [٥].

وروى عن أبى هريرة رضي الله عنه[٦] مرفوعًا: أعبد النّاس أكثرهم تلاوة للقرآن.

---

١. أبو عبيد: (ت٢٢٣هـ): القاسم بن سلام، كان أبوه مملوكًا روميًا، وكان أبوه إمام عصره فى كل فنٍ من علم. كان أبو عبيد قليل الرواية، حسن التصنيف مفتيًا فى القرآن والفقه والأخبار العربية، له من التصانيف: الغريب المصنّف، غريب القرآن، غريب الحديث، معانى القرآن. انظر: بغية الوعاة ٢/ ٢٥٣. المعارف ٥٤٩. المعين:١٣١.

٢. سورة الحج: ٤٦.

٣. الفرّاء: (١٤٤/ ٢٠٧هـ) أبو زكريا، يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمى، أطلق عليه الفرّاء لأنه يفرى الكلام أى يحسن تقطيعه وتفصيله، ولد بالكوفة ونشأ بها، كان قوى الحفظ، لا يكتب ما يتلقاه عن شيوخه استغناءً بحفظه، وكان زعيم الكوفيين بعد الكسائى، ويقول ثعلب: لولا الفراء لما كانت عربية؛ لأنه خلصها وضبطها. ولولا الفراء لسقطت العربية... له من التصانيف الكثير منها: الأيام والليالى، الجمع والتثنية فى القرآن، الحدود، المذكر والمؤنث، معانى القرآن. انظر: بغية الوعاة: ٢/ ٣٣٣. المعارف: ٥٤٥. الإعلام: ٩٤.

٤. سورة ق: ٣٧.

٥. سورة البقرة: ١٢١.

٦. سبق الترجمة له.

وقال ﷺ: "إنّ القلوب تصدى كما يصدى الحديد فقيل يا رسول الله: وما جلاؤها! قال: قراءة القرآن وذكر الموت"[١].

وقال ﷺ: "إنّ الله قرأ سورة طه ويّس قبل أن يخلق الخلق بألف عام فلمّا سمعت الملائكة القرآن قالوا طوبى لأمة ينزل عليها هذا، وطوبى لأجواف تحمل هذا، وطوبى لألسنة تنطق بهذا"[٢].

وقال الحسن البصرى[٣]: إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل، وجعلتم الليل جَمَلاً تركبونه فتقطعون به المراحل، وإنّ من كان قبلكم رأوه مراسيل إليهم من ربّهم، فكانوا يتدبّرونها بالليل، وينفذونها بالنهار.

وصلاة اللّيل مَسَافتها فاذْهب فيها بالفهم وجى

الصلاة لغة: الدعاء. وشرعًا: الأفعال والأقوال المخصوصة، والمراد بها هنا نافلة الليل. والضمير فى مسافتها يعود على التلاوة. والمسافة هى: الصلاة نفسها فإنّ المفازة البعيدة محل لكثرة السير. وصلاة الليل محل الاكثار من القراءة، فكأنها لها كالمسافة. والذهاب والمجى معروفان واستعارهما الشيخ للتنكر المكرر فى الآية من كتاب الله تعالى. والفهم والعلم من فهمت كذا علمته.

يعنى: أن صلاة الليل محل الاكثار من تلاوة القرآن؛ فاخصص تلك التلاوة بمزيد حضور وكرر الآية تأملك مرة بعد أخرى؛ ليحصل لك ثانيًا وثالثًا أكمل ما حصل لك أولاً، فيتم لك حينئذ لذّة المناجاة، وتفيض المعارف على قلبك.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾[٤] الآية.

وقال تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾[٥].

---

١. رواه ابن عدى فى الكامل فى الضعفاء ١/ ٢٥٨، وابن الجوزى فى العلل المتناهية فى الأحاديث الواهية، ٢/ ٢٤٧، وكذلك ميزان الاعتدال ٩٠٨٥، ولسان الميزان ٦/ ٥٧٦.

٢. رواه الدرامى فى مسنده ٢/ ٤٥٦، وابن عساكر فى تاريخ دمشق ٥/ ١٤١، والبيهقى فى شعب الإيمان ٢/ ٤٧٦ برقم (٢٤٥٠)، وابن عدى فى الكامل ١/ ٢١٨.

٣. سبق الترجمة له.

٤. سورة الإسراء: ٧٩.

٥. سورة الزمر: ٩.

وقال المغيرة بن شعبة[١] قام رسول الله ﷺ حتى تفطَّرت قدماه فقيل له قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخَّر فقال: أفلا أكون عبدًا شكورًا[٢].

وقد ورد أن قيام الليل قربة إلى الله تعالى، وتكفير للذّنوب، ومطردة للداء عن الجسم ومنهاة عن الإثم.

وتـأمّـلـهـا ومـعـانـيـهـا تـأتـى الـفـردوسَ وتـفـتـرج[٣]

التأمل: استعمال الفكر، والضمير عائد على التلاوة. والمعانى: جمع معنى مفعل من عنا إذا قصد. والفردوس: الجنّة.

ففى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: "إذا سألتم الله عزّ وجل فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنّة وفوقه عرش الرحمن"[٤]. وتفترج أى: تزول عنك الهموم.

يعنى: أنك إذا كررت الآيات فى تلك التلاوة وتفهَّمت، فزت بالنجاة ودخول الجنة، جنة الفردوس، وبعدت عن الهموم، واسترحت من كدورات الدنيا، وأهوال يوم القيامة بفضل الله تعالى وجزيل كرمه.

واشـرب تـسـنـيـمَ مُـفـجَّـرِهـا لا مُـمـتـزجًـا ويمُـمـتـزج

الشرب معروف، وقد يستعار لحفظ العلم بسرعة، فيقال: فلان شرب العلم أى: حفظه سريعًا، والجامع بينهما التحصيل بلا كلفة. وتسنيم: علم لعين فى الجنة، سميت بمصدر نسم إذا رفعه إما لأن شرابها أرفع شراب فى الجنة أو لأنه يأتيهم من فوق على

١. المغيرة بن شعبة: (ت٥٠هـ) أبو عبد الله، المغيرة بن شعبة من ثقيف، شهد بيعة الرضوان، وشهد اليمامة وفتوح الشام واليرموك والقادسية، ولاه عمر (رضي الله عنه) البصرة فافتتح "ميسان" و"دستُميسان" و"أبزقباذ"، و"سوق الأهواز"، و"همذان"، وشهد فتح "نهاوند" ويقال أنه أحصن ثمانين امرأة!! ومات بالكوفة وهو أميرها. انظر: المعارف: ٢٩٤. المعين: ٣٣. الإعلام: ٣٦.

٢. صحيح مسلم برقم (٢٨١٩)، وصحيح البخارى برقم (١١٣٠)، والنسائى فى المجتبى ٣/ ٢١٩، والترمذى فى جامعه ٤١٢، وابن ماجه ١٤١٩.

٣. فى بعض الروايات: تأتى الفردوس وتبتهج. وفى أخرى: تأتى الفردوس وتنفرج.

٤. صحيح البخارى، كتاب التوحيد برقم (٧٤٢٣).

ما روى: أنها تجرى فى الهواء منسمة تنصب فى أوانيهم. والفجر بفتح الجيم: الماء المجرى من فجرت الماء أجريته. والممتزج: المختلط، وقوله لا ممتزجًا أى: أن هذا الشراب يكون خالصًا لا امتزاج فيه وهو الرحيق وممتزجًا بغيره، وذلك الممزوج به إما شراب الجنة مطلقًا أو ماء كافور وهى عين فى الجنة ماؤها فى بياض الكافور ورائحته وبرده، فالحاصل أنك تجمع بين هاتين اللذتين العجيبتين لذة الرحيق، ولذة الممزوج.

مُدِحَ العقلِ الآتيه هُدى وهَوى مُتَولٌ عنه هُجِى

المدح: الثناء. والعقل فى الأصل: المنع، وفى كلامه ثمرة العقل الطبيعى الذى نيط به التكليف الشرعى. يقال: فلان عاقل إذا كان مقبلاً على تحصيل مصالحه مشتغلاً بتهذيب نفسه ناظرًا فى عاقبته، ويقابله: الخرق والهوى.

قال سيدنا رسول الله ﷺ "العاقل من عقل عن الله أمره ونهيه"[1].

والهدى: الرشاد، والتولى: الإعراض. والهجاء: خلاف المدح، والضمير المجرور بعن يعود على الهدى.

يعنى: قد أثنى الشرع على عقل أتى صاحبه من الهُدى ما أفهمه أوامر الله ونواهيه إلى أن ارتقى إلى تلك المقامات وتلبَّس بتلك الطاعات، وذمَّ عقل شخص معرض عنها إذا لم تحصل له الثمرة التى بها كان العقل محمودًا.

وكتاب الله رياضُتُه لعقول الخلق بمُندَرَج[2]

رياضته أى: تعليمه وتأديبه ونهيه ووعده ووعيده ووعظه، وضرب أمثاله للبيان والتقريب لعقول العباد، من رضت الدابة رياضة علمتها السير. وقوله بمندرج أى: بطريق واضحة يدرج عليها لصحتها ووضوحها من درج القوم واندرجوا: مضوا فى سبيلهم.

لما بيّن فيما مضى أن العقل المحمود هو المرشد إلى تزكية النفس. أخذ يبيّن فى هذا البيت أن القرب من الله تعالى إنما يكون بأجر الأعمال على سياسة الشرع بصدق ومتابعة رسول الله ﷺ بالنظر فى الأدلة التى يصيبها ومرجعها إلى الكتاب، فلذا خصّه بالذكر لأنه الآية الكبرى، والنعمة العظمى فى بيان الأمور التى لا تهتدى إليها العقول، وفى الاعتصام من

---

١. أورده الحافظ العراقى فى المطالب العالية (٣٢٩٤).

٢. فى بعض الروايات: لعقول الناس بمندرج.

الفتن قال رسول الله ﷺ: "إنه سيكون فتن كقطع الليل المظلم، قيل: فما النجاة منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله تعالى فيه نبأ من قبلكم، وخبر من بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو فصل ليس بالهزل. من تركه تجبُّرًا قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غير، أضله الله، وهو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم. هو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يمله الأتقياء من عَلِمه سبق، ومن عمل به أُجِر، ومن حَكَم به عدل، ومن اعتصم به هُدى إلى صراط مستقيم"[١].

وخيار الناس هدايَتُهُم وسواهُم من هَمَجِ الهَمَجِ[٢]

الخيار: خلاف الأشرار. والهادى المعروف من هديته الطريق هداية عرفته. والهمج: واحدة همجة وهو ذباب صغير يسقط على وجوه الغنم والحمير وأعينهما.

يعنى أنك حيث علمت أن أم أصول العلم هو القرآن العظيم ومنه يستمد العقل وبه يهتدى إلى السياسة الشرعية بالطريقة المحمدية الجامعة الخاتمة فقد علمت ضرورة فضل العلم والعلماء. لأن العلم يهدى إلى الخيرات، والعالم يهدى بعلمه النافع الذى يقارنه الهُدى، وأما العلم الذى لا يكون بهذه الصفة فلا يكون صاحبه من الأخيار، بل هو شر الأشرار. فالجهال، والعلماء الذين لاهدى لهم من أرذل الرذلاء وأسفل السفلاء، وشبههم الشيخ فى قلة همتهم وخسّة قدرهم بهذا الجنس الخسيس من الذباب، ثم بالغ بإضافته إلى الهمج.

قال سيدنا على بن أبى طالب[٣] رضي الله عنه فى وصيته لكميل بن زياد[٤]: الناس ثلاثة: عالم ربانى، ومتعلم على سبيل النجاة، وهمجٌ رُعاع اتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح لم يستضيؤوا بنور العلم ولم يلجؤوا منه إلى ركن[٥].

---

١. رواه ابن شيبه فى مصنفه (١٥/ ١٢١)، والشجرى فى أماليه (٢/ ٢٥٩)، وأورده صاحب كنز العمال برقم (٣٠٩٩٧).

٢. فى بعض الروايات: وخيار الخلق هدايتهم.

٣. الإمام على: ستأتى ترجمته لاحقًا فى المتن.

٤. كميل: (١٢/ ٨٢هـ): كميل بن زياد بن نهيك النخعى: تابعى ثقة من أصحاب الإمام على كرم الله وجهه. انظر: معجم الأعلام: ٦٣٠. الإعلام: ٤٨.

٥. انظر هذه النصائح وغيرها فى: سجع الحمام فى حكم الإمام: ٤٦٦ وما بعدها.

وقد ورد فى ذم علماء السوء تشديدات يطول ذكرها، وهم الذين يقصدون بالتعلم الحظ الدنيوى، والتوصل إلى المنزلة والجاه والمال والتقدم.

قال نبينا ﷺ: "أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه"[١].

وقال ﷺ: "لا يكون المرء عالمًا حتى يكون بعلمه عاملاً"[٢].

وقال ﷺ: "يكون فى آخر الزمان عبّاد جهال، وعلماء فسّاق"[٣].

وإذا كنتَ المقدامَ فلا تجزَعْ فى الحرب من الرَّهَجِ

الكون: الحصول والوجود. والمقدام: الرجل الكثير الإقدام على العدوّ لشجاعته، والمقدامة بالتاء للمبالغة مثل مهدار ومهدارة. والجزع :ضدّ الصبر، وهو اضطراب النفس مما نزل بها. والحرب: القتال. والرهج: بتقديم الراء: القتال. استعاره الشيخ للخواطر الواردة من النفس والشيطان بجامع ضعف الوارد.

يعنى: أن العلم والعبادة حيث عظم الخطر فيهما من جهة إنه لا ينجى منهما إلا ما وقع بشروطه التى أشرنا إليها ربما كان ذلك سببًا للفتور والكسل. فحذّر الشيخ منهما وأمر بالجد والنشاط، ومثّل ذلك بالرجل الشجاع لا يرده عن قصده كثرة العدد. قال: كن فى جدك ونشاطك قوى القلب بالله، نافذ العزم فيما تطلبه كالمقدام الذى لا يرده عن مقصده راد وإن عظم؛ لقوة قلبه ونفاذ عزمه، فمن العوارض وسوسة الشيطان، وهوى النفس فإنهما يقولان: أنتَ لا تبلغ من تقدّم فى علمه وعمله لكثرة القوادح، فاتركهما كى لا تعذب بسببهما أشد العذاب. فإذا قالا ذلك فادفع أنت هذه الشبهة بأن تقول: إنما أنا عبد الله، وعلى العبد الامتثال. فإن الله يحكم ما يشاء، وعلى العبد المجاهدة فى تحصيل الإخلاص النافع له المنجيه يوم القيامة.

وإذا أبصرتَ مَنَارَ هُدى فاظهَرْ فردًا فوق الثَّبج

---

١. سنن الدارمى: ١/ ٩٣ باب العمل بالعلم (٢٧) رقم (٢٦٢)، مشكاة المصابيح ١/ ٦٧.

٢. إحياء علوم الدين ١/ ٥٩، طبقات الشافعية: ٦/ ٢٨٩.

٣. رواه الحاكم فى المستدرك ٤/ ٣١٥، والذهبى فى ميزان الاعتدال ٩٨٧٧، والسلسلة الضعيفة للألبانى ٤٤٧.

الإبصار: رؤية العين، ويستعار لتيقُّن الشيء. والمنار: مفعل من النور وهو المحلّ الذى يحمل فيه النور، ومنه المنارة التى يوضع عليها السراج، ويطلق أيضًا على العَلَم الذى ينصب فى الطرق للاهتداء به. والظهور هنا: العلو من قولهم: ظهر على البيت أى علا. والشَبَج: من كل شيء أعلاه. قال الجوهرى[1]: وقال ثبج كلّ شيء أوسطه.

يعنى: إن أخذت فى الجدّ فى العلم والعمل وأعرضت عن الرهج وظهر لك أمر واضح كالمنار يتحقق عنده الوصول إلى مقاصد الهدى الشريفة؛ فجدّ فى طلبه واستعداد أسبابه حتى تصل إلى المقصد الجليل ويحصل لك أرفعه وأشرفه، فتكمل لك مراتب الهداية وتكون حينئذ كمن تسنّم شيئًا عاليًا أو حلّ بالوسط الذى هو مظنه الأمن والقرار، وكن مع ذلك سابقًا إليه منفردًا.

وإذا اشْتاقت نفس وَجَدَتْ ألَمًا بالشوق المُعْتَلِجِ

الاشتياق: التهيج، وهو تحرك النفس إلى ما تميل إليه. ووجد مطلوبه يجده بالكسر أى: ظفر به بعد أن لم يكن به ظافرًا. والتنوين فى قوله ألمًا للتكثير أى: آلامًا شديدة. والمعتلج: مفتعل من العلوج وهو الغلظ والاشتداد.

يعنى: كل نفس رسخت معرفتها وصدقت محبتها إذا اشتاقت إلى حضرة محبوبها وجمال معبودها وجدت ألما بشوقها المعتلج أى: الشديد المحرِّق لأحشائها، المترقب بقلوبها أنواعًا من الألم لا ينطفئ إلا ببرد لقاء المحبوب، وظهر بهذا وجه ارتباط هذا البيت بالذى قبله.

وثنايا الحَسْنا ضاحكة وتمام الضَحك على الفَلَج

الثنايا: أربع فى مقدم الأسنان، ثنتان من فوق، وثنتان من أسفل، وطلق على طرائق العُقاب، واحدها ثنية. والحَسنا بفتح الحاء المهملة والمد: صفة المؤنث وهو اسم أنثى من غير تذكير إذ لم يقولوا رجُل أحسن، وقالوا فى ضده: رجل أمرد ولم يقولوا: جارية مرداء. والضحك. بكسر الضاد وسكون الحاء، وفتح الضاد وكسر الحاء وسكونها أيضًا مصادر ضحك. والتمام: الكمال، وتم القمر كمل.

١. سبق الترجمة له.

والفلج: تباعد منابت الأسنان، مصدر فلج الرجل بكسر اللام فلجًا، وهو حسن فى الأسنان.

يعنى: أن مناهج المعرفة ومعالم الاستقامة المتلقية من الملة المحمدية بيّنة لا لبس فيها يخاف منه الهلاك والوقوع فى المكروه والضلال، وإنما يخاف من العوارض التى تعرض للسالك من جهة النفس والشيطان وذلك أمر يرجع إلى تقصيره فى المجاهدة. فإن النبى ﷺ لم يقبضه الله إليه حتى بيّن ذلك على الوجه الأكمل.

قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (١).

وكمال وضوح تلك المعالم إنما هو لوضوح أصلها، وإحكام وضعها، والوسائل والفروع واضحة بوضوح المقاصد والأصول، ألا ترى إن حسن الضحك وكماله إنما يتم بإحكام منبت الأسنان الذى هو الفلج.

وعياب السّر قد اجتمعت بأمانتها تحت الشَّرَج(٢)

العياب: جمع عيبة بالمهملة، وهو وعاء يصنع من جلد الغزار ويطلق على من هو لك محل سر رجلاً كان أو امرأة، قال سيدنا رسول الله ﷺ: "الأنصار كرشى وعيبتى"(٣).

ويجمع أيضًا على عِيَب بكسر العين وفتح الياء وعلى عيبات، والسر: ما يكتم، وجمعه: أسرار. والأمانة: ضد الخيانة، وهى هنا ما يُؤتمنُ عليه من أسرار الشريعة. والشرّج بفتح الراء والجيم هى: العرى.

يعنى: أن أسرار الله فى خلقه وعيَب ملكه وملكوته مما حجب الخلق عنه إلا من شاء تشبه عيبة موقورة شدت لصون ما فيها شدًا وثيقًا حتى انضمت ودخلت تحت عراها فلا يطلع على ما فيها إلا من أذن له فى حل تلك العُرى فذاك يصل ويطلع على ما لم يطلع عليه غيره، وذلك الوصول يكون للأصفياء بتدرج النفوس على الأعمال وتهديها بتصفية القلب حتى يرتسم فى مرآتها

---

١. سورة المائدة: ٤.

٢. فى بعض الروايات: وعياب الأسرار اجتمعت بأمانتها تحت السرج.

٣. رواه البخارى فى صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، رقم (٣٨٠١)، ورواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٥١٠)، وفضائل الصحابة للنسائى: ١٨٥.

الحقائق الغيبية والعلوم اللدنية[١]. والسبب فى كتم هذا عن العامة: أن العقول الضعيفة لا تحتمل الأسرار القوية كما لا تبصر نور الشمس الخفافيش.

ووقع فى كلام الشيخ الإشارة إلى أن العالم الراسخ والعارف المكاشف، وإن اتسعت معارفهما، فما خفى عنهما أكثر؛ لأن كل واحد إنما يعلم ما فتح الله به عليه. قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٢].

والـرِّفق يـدوم لِـصـاحـبـه والخـرْق يـصـيـر إلى الـهَـرَج

الرفق: الاقتصاد والتوسط، وأيضًا لين الجانب، ولطافة الفعل. والخرق ضده وهو: تناوُل الأمر على خلاف وجهه مع عجل وزيادة. والدوام: الاتصال. والهَرج بسكون الراء: الفتنة والاختلاط وكثرة الفساد، وبفتحها: تحير البصر.

والشيخ رحمه الله حرَّكه على المعنى الأول للضرورة، وهو على المعنيين معا كناية عن انقطاع العمل لأن كثرة الفساد والتحير لا يدوم معهما عمل.

يعنى: من سلك فى كلّ ما أسلفناه من المطالب العلمية والعملية، الرفق بلين الجانب مع الناس والاقتصار فى تحصيلها ولم يجهد نفسه دام عمله، فاستفاد وأفاد، وهدى واهتدى، ومن عنَّف النفس وكلَّفها فوق طاقتها وعامل الناس بصلابة الجانب، لم يدم له عمل، وتحيَّر بجهله، فضلّ وأضل. ولهذا قال ﷺ: "إن ديننا هذا متين فأوغلوا فيه برفق فان المنبتَّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى"[٣].

صـلـوات الـلـه عـلـى الـمـهـدى الـهادى الـنـاس إلى الـنَّـهَج[٤]

الصلاة: اسم وضع موضع المصدر بقوله صلى صلاة لا تصلية، وهى من الله الرحمة، ومن غيره استدعاء للرحمة من الله تعالى، وجمعها باعتبار الأنواع. المهدى أى: الذى خلق فيه الهدى عقدًا وقولاً وفعلاً لوجود عصمته مُطلقًا.

١. العلم اللدنى: يراد به العلم الحاصل لا من كسب، ولا تعمُّل للعبد فيه، وسُمى لدنيًا لكونه إنما يحصل من لدن ربنا لا من كسبنا. انظر: لطائف الإعلام: ٢/ ١٥٦.

٢. سورة الإسراء: ٨٥.

٣. رواه البيهقى فى سننه الكبرى ٣/ ١٨، ١٩، وابن المبارك فى الزهد ٤١٥، وابن عبد البر فى التمهيد ١/ ١٩٥، وهو فى مجمع الزائد ١/ ٦٤.

٤. فى بعض الروايات: الهادى الخلق إلى النهج.

والهادى: المرشد لعباد الله بالدعاء إليه، المعرِّف لهم طريق نجاتهم. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (١).

والناس: الجن والإنس وأصله: أناس عند سيبويه(٢) والفراء(٣) فحذف الهمزة، وعند الكسائى(٤) فعل من ناس ينوس أى: تحرك فلا حذف. والنهج بالفتح والسكون: الطريق أطلق هنا على ما أتى به نبينا محمدﷺ من الدين المستقيم، والصلاة عليهﷺ فرض فى الجملة لأمر الله بها مُطلقًا وهو الوجوب عند أكثر أهل العلم.

ونقل القاضى عياض(٥) رحمه الله تعالى الإجماع عليه، وقال الطبرى(٦): للندب، وادعى الإجماع عليه. ثم الواجب قولها فى العمر مرة واحدة كالشهادة

---

١. سورة الشورى: ٥٢.

٢. سيبويه: (ت١٨٠هـ): أبو الحسن عمرو بن عثمان بن قنبر، لقّب بسيبويه أى رائحة التفاح. إمام البصريين. أصله من البيضاء من أرض فارس. أخذ عن الخليل، ويونس وغيرهما. قال الأزهرى: كان سيبويه علامة، حسن التصنيف. انظر: بغية الوعاة ٢/ ٢٢٩. المعارف: ٥٤٤. الإعلام: ٨٢.

٣. سبق الترجمة له.

٤. الكسائى: (ت١٨٣هـ تقريبًا) أبو الحسن، على بن حمزة بن عبد الله بن عثمان الإمام المعروف بالكسائي .إمام الكوفيين فى النحو واللغة، وأحد القراء السبعة المشهورين، وسُمى الكسائى لأنه أحرم فى كساء، وقيل غير ذلك، له من التصانيف الكثير منها: "معانى القرآن"، "القراءات"، "النوادر"، و"المصادر"..... انظر: بغية الوعاة: ٢/ ١٦٢. المعارف: ٥٤٥.

٥. القاضى عياض: (ت٥٤٤هـ بمراكش) أبو الفضل، عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبى السبتى، عالم المغرب، وإمام أهل الحديث فى وقته. وُلِى قضاء سبتة ثم قضاء غرناطة، وله الكثير من التصانيف منها: "ترتيب المدارك وتقريب المسالك فى معرفة أعلام مذهب مالك"، "مشارق الأنوار"، وجمع العلامة المقرى سيرته وأخباره فى كتاب "أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض". انظر: قضاة الأندلس: ١٠١. جذوة المقتبس: ٢٧٧، المعجم لابن الأبار: ٢٩٤. معجم الأعلام: ٥٦٩. الإعلام: ٢٢٣.

٦. الطبرى: (٢٢٤/ ٣١٠هـ) أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد بن خالد بن كثير بن غالب، والطبرى نسبة إلى طبرستان. برع فى العلوم الدينية والأدبية والتاريخية إلى جانب الفلسفة والمنطق والرياضيات والطب، له من التصانيف الكثير منها: "جامع البيان عن تأويل آى القرآن"، و"تاريخ الطبرى".... وغيرها. انظر: الوفيات: ٢٠٣. نزهة الألباء فى طبقات الأدباء: ١٥٠. المحمدون من الشعراء: رقم ١٥٩. معجم الأعلام: ٦٨٩. الإعلام: ١٣٣.

بالرسالة كذا قال الشارح. وهو جار على معتقده، وأما معتقدنا فذهب إمامنا الشافعي[١] رضي الله عنه وأصحابه إلى وجوب الصلاة عليه ﷺ في كل صلاة في التشهد الأخير، وما زاد على ذلك فمندوب من شعائر الإسلام.

قال سيدنا رسول الله ﷺ: "لقيت جبريل فقال لي: أبشرك أن الله تعالى يقول: من سلَّم عليك سلَّمتُ عليه، ومن صلى عليك صليتُ عليه"[٢].

وقال ﷺ: "من صلى عليَّ في كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له ما بقي اسمي في ذلك الكتاب"[٣]. والأحاديث في ذلك كثيرة.

وأبى بكر في سيرته ولسانُ مقالته اللَّهج

قدّم الصديق[٤] على الثلاثة؛ لأنه أفضل الصحابة عند جمهور أهل السنّة، ومن ادعى الاجماع عليه فقد أبعد لأن سلمان[٥]، وأبا ذر[٦]، والمقداد[٧]،

---

١. الشافعي: (١٥٠/ ٢٠٤هـ) أبو عبد الله، محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي. أحد الأئمة الأربعة. صاحب المذهب المعروف. كان بحرًا في العلم وآية في الذكاء. أول من دوّن علم الأصول ورتّب مسائله، وكتابه "الرسالة" معروف متداول، نشأ بمكة، ولازم مالكا بالمدينة، وتوفي بمصر. انظر: المعين: ١١٥. الأعلام ٦/ ٢٤٩. معجم الأعلام: ٦٧٧. الإعلام: ٩٢.

٢. لم أقف عليه في كتب الأحاديث المختلفة.

٣. رواه الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢/ ١١٤، والأصبهاني في الترغيب ١/ ١١٠، وأورده الغزالي في الإحياء، ومجمع الزوائد ١/ ١٣٦.

٤. الصديق هو لقب أبي بكر. وستأتي ترجمته في متن النص.

٥. سلمان: (ت٣٥هـ) أبو عبد الله، يعرف بسلمان الخير. مولى رسول الله(ﷺ). سئل عن نسبه فقال: أنا سلمان بن الإسلام. أصله من فارس. أول مشاهده الخندق وهو الذي أشار بحفره، ولم يفته بعد ذلك مشاهد مع رسول الله(ﷺ). توفي بالمدائن. انظر: المعارف: ٢٧٠. المعين: ٣٤. الإعلام: ٣٢.

٦. أبو ذر: تقدمت ترجمته.

٧. المقداد: (ت٣٣هـ) المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة بن عامر. يقال له: الكندي لمحالفة أبيه كندة بحضرموت. هرب لمكة لثأر عليه في حضرموت، فتبناه الأسود بن عبد يغوث فسُمي المقداد بن الأسود. ولما أُبطل التبني عُرف بالمقداد بن عمرو، يكنى أبو الأسود، وأبو عمرو. أسلم قديمًا. هاجر الهجرتين. شهد بدرًا والمشاهد كلها مع النبي(ﷺ). انظر: المعارف: ٢٦٢. المعين: ٣٣. معجم الأعلام: ٨٥٧.

وجابر[١]. وأبا سعيد الخدرى[٢] وزيد بن أرقم[٣] فضلوا عليًا عليه، وكان سفيان[٤] يرى رأى الكوفيين فى تقديم على، ثم رجع. ووقف جماعة من السّلف عن على وعثمان[٥] ولم يفضلوا واحدا منهما على الآخر منهم: الإمام مالك[٦]، ويحيى بن سعيد القطان[٧] رحمهما الله تعالى.

اسم أبى بكر رضي الله عنه: عبد الله، وكان يقال له: عتيق لجماله وعتاقة وجهه أو لأن النبى ﷺ قال فيه: "من سرَّه أن ينظر إلى عتيق من النار فلينظر إلى هذا"[٨].

---

١. جابر: (ت ٧٨هـ تقريبًا) أبو عبد الله، أو أبو عبد الرحمن أو أبو محمد، جابر بن عبد الله بن عمرو الأنصارى السلمى المدنى، شهد العقبة مع السبعين من الأنصار، وكان أصغرهم يومئذ، ولم يشهد بدرًا ولا أحدًا وشهد ما بعد ذلك، وروى عنه كثيرون. انظر: المعارف: ٣٠٧. المعين: ٢١.

٢. أبو سعيد: تقدمت ترجمته.

٣. زيد بن أرقم: (ت٦٦هـ) أبو عمرو، زيد بن أرقم بن زيد الأنصارى. صحابى جليل، غزا مع رسول الله (ﷺ) سبع عشرة غزوة، ونزل بالكوفة، وكان من خواص الإمام على وشهد معه صفين. انظر: المعين: ٢٣. معجم الأعلام: ٢٨٥.

٤. لعله، سفيان: (٩٥/ ١٦١هـ) أبو عبد الله، سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى. من بنى ثور بن عبد مناف من مضر الكوفى. أحد المجتهدين المجمع على ورعهم ودينهم وزهدهم وثقتهم، وُلد بالكوفة، وتوفى بالبصرة. انظر: المعين: ٨٧. المعارف: ٤٩٧.

٥. عثمان بن عفان: ستأتى ترجمته فى المتن.

٦. الإمام مالك: (٩٣/ ١٧٩هـ) أبو عبد الله، مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر بن عمرو ابن الحارث. كان أبوه أنس راويًا للحديث. روى عنه كثيرون منهم الإمام أبو حنيفة وغيره، وأجل آثاره كتابه "الموطأ" واعترف له بالسبق على كل كتب الحديث. وقيل: الموطأ هو الأصل واللباب، والبخارى هو الأصل الثانى فى هذا الباب، وعليهما بنى الجميع كمسلم والترمذى. انظر: المعارف: ٤٩٨. المعين: ٩٠.

٧. يحيى بن سعيد: (ت١٩٨هـ) أبو سعيد، يحيى بن سعيد بن فروخ القطان، مولى بنى تميم، كان من سادات أهل البصرة وقرائهم. كان ممن مهَّد لأهل الحديث طرق الأخبار وحثهم على تتبع العلل للآثار. قال ابن حنبل: ما رأيت بعينى مثله. انظر: المعارف: ٥١٤. ا عين: ١٠٥. معجم الأعلام: ٩٣٩. الأعلام: ٩/ ١٨١.

٨. ورد الحديث بشأن أعرابى، انظر: مشكاة المصابيح ١/ ١٩. وانظره فى صحيح البخارى: ٢/ ٢٦١. ومسلم ١/ ٤٤ كتاب الإيمان.

وسُمِّي الصديق لمبادرته إلى تصديق رسول الله ﷺ، ولتقى نسبه مع نسب النبى ﷺ فى مُرّة.

واللسان: آلة الكلام يذكَّر ويؤنَّث. واللهج بكسر الهاء: المثابر على الشىء الوالع به، فكان رضي الله عنه مداومًا على الصدق فى سيرته وقيامه فى نصرة النبى ﷺ.

ومن عجب ما رُوى عنه أنه قال: قلت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله دعنى لأدخل قبلك. يعنى إلى الغار. فإن كان فيه شىء نالنى دونك قال: ادخل. فدخل أبو بكر رضي الله عنه وجعل يلتمس الغار بيده، فكلما رأى جحرًا شق من ثوبه وألقمه الجحر، حتى أتى على ثوبه أجمع، وبقى جحر فلم يجد ما يسدّه به، فوضع عليه عقبه، ثم دخل النبى ﷺ فلما أصبح قال له النبى ﷺ: أين ثوبك يا أبا بكر؟ فأخبره بالذى صنع. فرفع النبى ﷺ يديه وقال: "اللّهُمّ اجعل أبا بكر معى فى درجتى يوم القيامة". فأوحى الله إليه إن الله قد استجاب لك[1].

وأبى حفص وكرامته فى قصة سارية الجبل

هو عمر بن الخطاب[2] رضي الله عنه بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب العدوى القرشى. وفى كعب يلتقى نسبه مع نسب النبى ﷺ.

ولد بعد الفيل بثلاثة عشر عامًا. أسلم بعد أربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة، وكان إسلامه عزًا ظهر به الإسلام، وخلافته شرفًا لأهل الإسلام، وبويع بالخلافة يوم مات أبو بكر رضي الله عنه سنة ثلاث عشرة، فسار فيهم أحسن سيرة.

وأشار الشيخ إلى ما روى أنه رضي الله عنه بينما هو يوم الجمعة يخطب جعل يصيح فى خطبته يا ساريةُ الجبل[3]. قال على رضي الله عنه: فكتبت تاريخ تلك الكلمة فلما قدم

١. أورد هذه الرواية بلفظ آخر الخطيب التبريزى فى مشكاة المصابيح ٢/ ٤٩٢.

٢. انظر ترجمته فى: المعارف: ١٨٤، المعين: ١٨. الرياض النضرة: ٢/ ١٨٥.

٣. سارية: (ت٣٠هـ) هو سارية بن زنيم بن عبد الله الكنانى صحابى من الشعراء القادة الفاتحين كان لصًا فاتكًا فى الجاهلية. كثير الغارات. يسبق الفرس عدوًا على رجليه. أسلم لما ظهر الإسلام، وجعله عمر بن الخطاب أميرًا على جيش وسيّرة إلى بلاد فارس عام ٢٣ هـ، وهو المعنى بقوله: "ياسارية الجبل" أى: الزم الجبل. انظر ترجمته فى الإصابة ترجمة رقم ٣٠٢٤ معجم الأعلام: ٢٩٠.

رسول ذلك الجيش قال يا أمير المؤمنين: غزونا يوم الجمعة وقت الخطبة فهزمونا، فإذا إنسان يصيح يا سارية الجبل!! فهزم الله الكفار وظفرنا بالغنائم العظيمة ببركة ذلك الصوت.

والكرامة: اسم من الإكرام والتكريم وهى: الخارق الذى يكرم الله به عبده الصالح لزيادة اليقين. والقصة: الحديث فعلة من قصَّ أثره إذا تتبعه: لأن المخبر يتبع معنى الحديث ليبلغها. والخلج بفتح اللام: هو أن يشتكى الرجل عظامه من عمل أو طول مشى وتعب. وهو فى البيت بكسر اللام نعت لأنه كفرح من فرح. وإن قُرئ فى البيت بالفتح فجائز ويكون نعتًا بالمصدر للمبالغة كقولهم فى جد النبى ﷺ: "شيبة الحمد"، وفى صاحب رسول الله ﷺ: "طلحة الخير"[1] لكثرة خيره ومعروفه.

ووصف الشيخ سارية بذلك لأنه كان عند سماعه النداء فى غاية التعب والنكد والاضطراب واليأس من الظفر بالعدو. والواو أول البيت عطفت ما بعدها على ما قبلها فهو داخل فى حكم الصلاة، والواو الثانية عطفت ما بعدها مع مقدَّر دل عليه ما صرّح به فى البيت السابق، ويكون تقديره: وعلى أبى حفص فى سيرته وكرامته.

وأبى عَمْرٍ ذى النّورين الـ ـمستحيى المستحيا البَهِجْ[2]

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى القرشى الأموى. يلتقى نسبه مع نسب النبى ﷺ فى عبد مناف. ولد بعد السنة السادسة من الفيل، وبويع له بالخلافة بعد موت عمر باتفاق الناس عليه. وجمع الناس على المصحف، وكثر المال فى خلافته، وبشَّره النبى ﷺ بالجنة على

---

١. طلحة الخير: (ت٣٦هـ) أبو محمد، طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة: صحابى من العشرة المبشرين بالجنة. هاجر مع النبى(ﷺ)، خرج فى الدفاع عنه فى أحد، وهو أحد الستة المكلفين بالشورى. أحد الثمانية الذى سبقوا إلى الإسلام. سماه النبى(ﷺ) طلحة الخير، وطلحة الجود، وطلحة الفياض، مات يوم الجمل. انظر: المعارف: ٢٢٨. معجم الأعلام: ٣٦٧. الإعلام:٣٢.

٢. فى بعض الروايات: المستهدى المستحى البهج.

بلوى تصيبه فقال: الله المُستعان، فقتل مظلومًا صابرًا محتسبًا، وأهدر الله بدمه دم سبعين ألفًا وأزيد بالجمل وصفين[١].

وقد وصفه الشيخ بأربعة أوصاف:

الأول: ذو النورين، قال المهلب بن أبى صفرة[٢]: لأنه لم يعلم أن أحدًا أسدل سترًا على بنتى نبى غيره.

الثانى: المستحى اسم فاعل من الحياة، قال ابن عمر[٣] رضى الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: "عثمان أحيا أمتى وأكرمها"[٤].

الثالث: المستحيا: اسم مفعول، يحتمل إنه أشار به إلى ما ورد فى الصحيح أن النبى ﷺ كان جالسًا فدخل أبو بكر فلم يغط فخذه، ودخل عمر فلم يغطه، ودخل عثمان فغطاه، وقال: ألا استحى ممن استحيت منه ملائكة السماء[٥]، ويحتمل أنه أشار إلى استشهاده لأن الشهادة ملزومة للحياة.

الرابع: البهج بالباء الموحدة المفتوحة وكسر الهاء: وهو إشارة إلى حسن خلقه. قال ابن عبد البر[٦]: كان عثمان شيخًا جميلاً طول اللحية حسن الوجه.

---

١. موقعة "الجمل" وقعت فى منتصف جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ، وكانت بين الإمام على كرم الله وجهه، وبين طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة من جهة ثانية. انظر تفاصيلها فى الأخبار الطوال: ١٤٤ ومابعدها.

ـ موقعة "صفين"، كان مبدأ محاربات صفين أول صفر سنة ٣٧ هـ، وكانت بين الإمام على كرم الله وجهه، وبين معاوية بن أبى سفيان. انظر تفاصيلها فى الأخبار الطوال: ١٥٥ وما بعدها.

٢. المهلب بن أبى صفرة: (٧/ ٨٣ هـ) أبو سعيد. المهلب بن أبى صفرة بن ظالم بن سراق الأزدى العتكى. أمير. بطاش. جواد. انظر: معجم الأعلام: ٨٧١. الإعلام: ٤٨.

٣. ابن عمر: (١٠ق هـ/ ٧٣هـ) أبو عبد الرحمن. عبد الله عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى العدوى. صحابى. من أعز بيوت العرب فى الجاهلية. انظر: معجم الأعلام: ٤٤٩. الإعلام: ٤٦.

٤. ورد بلفظ آخر. انظر: مشكاة المصابيح ٢/ ٤٩٩ برقم (٦٠٦٩)، وصحيح مسلم ٤/ ١٨٦٦.

٥. مشكاة المصابيح ٢/ ٤٩٩ برقم (٦٠٦٩).

٦. ابن عبد البر: (ت ٤٦٣ هـ) أبو عمر. يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبى. من كبار حفّاظ الحديث. أديب. مؤرخ. وُلد بقرطبة، وولى قضاء لشبونة وشنترش، له من المصنفات: "جامع بيان العلم وفضله"، و"الاستيعاب" وغيرها. انظر: وفيات الأعيان ٢/ ٣٤٨. الصلة: ٦١٦. معجم الأعلام: ٩٦٧.

وروى بالنون من نهج الطريق نهوجًا أى: وضح، فيكون إشارة إلى إشهار فضله، ووضوحه مثل وضوح الطريق المسلوك.

وأبى حَسَنٍ فى العلم إذا وافى بسحائبه الخلج

هو على بن أبى طالب، واسم أبى طالب: عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم القرشى الهاشمى، يكنى أبا حسن.

قال ابن اسحاق[١]: هو أول من أسلم من الرجال، والصحيح أن أبا بكر أول من أظهر إسلامه، وعلىّ أخفى اسلامه خوفًا من أبى طالب[٢]. وأجمعوا على أنه صلى إلى القبلتين، وشهد المشاهد كلها، وقام فيها المقام العظيم، وأبلى ببدر، وأحد، والخندق، وخيبر بلاءً عظيمًا. وبويع له بالخلافة فى اليوم الذى قتل فيه عثمان من المهاجرين والأنصار، ولم يتخلف عن بيعته إلا القليل. والأحاديث فى فضله كثيرة، بل قال سفيان الثورى[٣] وأحمد بن حنبل[٤] وإسماعيل بن إسحاق[٥]: إنه لم يرد فى فضل أحد ما ورد فى فضله.

١. ابن اسحاق: لعله، محمد بن اسحاق بن يسار المطلبى بالولاء، المدنى (ت ١٥١ هـ/ ٧٦٨م). من أقدم مؤرخى العرب. انظر: معجم الأعلام: ٦٧٧. الإعلام: ٧٢.

٢. أبو طالب: (ت ٣ ق. هـ) عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم. أمه: فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم .كفل رسول الله (ﷺ) بعد وفاة جدّه، ظل يحمى رسول الله (ﷺ) من الكفار حتى مات. وتوفى عن بضع وثمانين سنة. انظر: سيرة ابن هشام ١/ ١٠٥/ ١٣٧..... وغيرها.

٣. سفيان الثورى: سبق الترجمة له.

٤. أحمد بن حنبل: (١٦٤/ ٢٤١هـ) أبو عبد الله، أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيبانى المروزى كان بارع الفهم لمعرفة الحديث صحيحه وسقيمه، صاحب مذهب فقهى معروف، له من الآثار "المسند" وهو من أكبر المراجع فى مجال السنة التى كتب لها البقاء واشتمل على نحو : ٤٠.٠٠٠ حديث بالمكرر. انظر: وفيات الأعيان ١/ ١٧. المعين: ١٢٣. معجم الأعلام: ٦٣.

٥. إسماعيل بن إسحاق: (٢٠٠/ ٢٨٢ هـ) إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد الجهضمى الأزدى. فقيه على مذهب الإمام مالك. جليل التصانيف، من بيت علم وفضل انظر: معجم الأعلام: ١٠١.

ومن كلامه الغر تسع كلمات:

ثلاث فى المناجاة وهى: كفانى فخرًا أن تكون لى ربًا، وكفانى عزًا أن أكون لك عبدًا، وأنت كما أحب، فاجعلنى كما تحب.

وثلاث فى الحكمة وهى: قيمة كل امرئ ما يُحسن، وما هلك امرئٌ عرف قدر نفسه، والمرء مخبوءٌ تحت لسانه.

وثلاث فى الأدب وهى: استغن عمن شئت فأنت نظيره، وتفضَّل على من شئت فأنت أميره، واضرع لمن شئت فأنت أسيره[١].

وقوله وافى هو من الموافاة وهى: الإتيان تقول فلان وافى إذا أتى. والسحاب: جمع سحابة وهى الغيم، وأصلها الجر لأنها تنجر فى الهواء، والسحب: الجر. والخلج بضمها: جمع خلوج وهى: السحاب المفترق وأيضًا السحابة المنفردة الكثيرة الماء كذا قال الشارح. وفى الصحاح: الخليج من البحر شرذمة منه. والخليج: النهر. والخليج: الجبل. والخليج: الجفنة، والجمع: خلج. والخلج أيضًا: سفن صغار. انتهى.

فاستعير لأنواع علومه (رضي الله عنه) السحائب ورشحت هذه الاستعارة للمبالغة بالخلج.

ومعناه: إذا أتى بعلومه النقلية والعقلية الكثيرة النفع لأهل الإسلام كالسحائب النافعة بمائها، وتلك العلوم هى: علوم التوحيد، والتفسير، والفقه، والفرائض، والعلم بفضل العربية وغيرها.

قال سيدنا رسول الله ﷺ: "أنا مدينة العلم، وعلى بابها"[٢]. وقال ﷺ: "ليهنك العلم أبا الحسن لقد شربت العلم شربًا ونهلته نهلاً"[٣].

---

١. انظر هذه النصائح فى "سجع الحمام فى حكم الإمام" مواطن متفرقة: ٢٦٨/ ٢٧٠.

٢. ورد الحديث بلفظ آخر. انظر: مشكاة المصابيح ٢/ ٥٠٤ .سنن الترمذى: ٥/ ٥٩٦ كتاب المناقب.

٣. رواه الحاكم فى المستدرك على الصحيحين ٣/ ٣٠٤، والحافظ ابن عساكر فى تاريخ دمشق ٢/ ٣٢٩، وأورده السيوطى فى الدر المنثور ٣/ ٣٤٧.

وكان الصحابة رضى الله عنهم يرجعون إليه فى المشكلات حتى أنّ معاوية[١] كان يرجع إليه فى بعض الوقائع كما أخرج ذلك مالك فى الموطأ.

وقد اقتصرت على ما شرطته من جل الأبيات فمن أراد الاطلاع على سير هؤلاء وفضلهم، وما وقع لهم من الأحوال السنية، ولبقية العشرة المشهورة فعليه بالكتاب المسمّى "بتحفة البررة فى فضائل العشرة" فقد استوفيت فيه الكلام على تراجم هؤلاء رضى الله عنهم، وأسأل الله أن يجعل ذلك خالصًا لوجهه ونفعنا بما علمنا ولا يجعله حُجة علينا[٢] وحقق رجانا فى كرمه والمسلمين أجمعين إنه ولى ذلك، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم[٣].

---

١. معاوية (ت ٦٠ هـ) معاوية بن أبى سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف رأس الدولة الأموية. تولى بعد الحسين عليه السلام. وهو أحد دهاة العرب وحلمائها. انظر: المعارف: ٣٤٤. الأعلام: ٨/ ١٧٢ ـ معجم الأعلام: ٨٥٠.

٢. فى نسخة الأزهر: ولا يجعله حجة علىّ وأن يحقق مرتجاى فى كرمه وفعل ذلك بجميع المسلمين إنه أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد كما باركت على إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد، تم الكتاب بعون الملك الوهاب يوم الأربعاء المبارك عاشر شهر ذى القعدة الحرام سنة ١٠٤٠هـ، والحمد لله وحده.

٣. مخطوطة بدار الكتب الوطنية تونس، مكتبة حسن حسنى عبد الوهاب رقم ١٨١١٧.